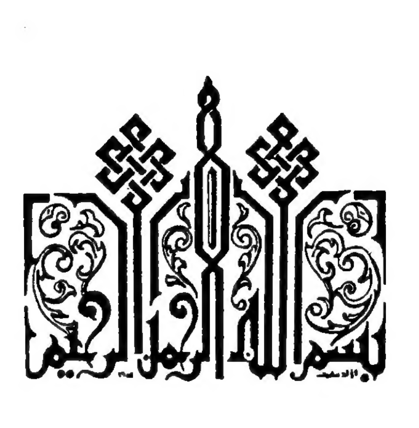
الاسلام لا العلمانية

مناظرة مع د. فؤاد زكريا

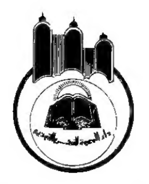
المستشار سالم البهنساوي

دار الدعوة ٦٥


بسم الله الرحمن الرحيم

الاسلام لا العلمانية

الطبعة الاولى
١٤١٢هـ - ١٩٩٢م



دار الدعوة للنشر والتوزيع
ت: ٥٣٩٦٩٤٠
ص. ب: ٦٦٥٢٠ بيان
الرمز 43756
الكـويت

الإسلام لا العلمانية
مناظرة
مع د. فؤاد زكريا

منذ أن أقام الاتحاد الوطني لطلبة الكويت مناظرة بالجامعة عن الإسلام والعلمانية بين المستشار سالم البهنساوي والدكتور فؤاد زكريا وذلك مساء الأربعاء العاشر من شعبان سنة١٤٠٧هـ الموافق الثامن من إبريل سنة١٩٨٧ م والرغبة في نشر هذه المناظرة في كتاب تتجدد بين الفترة والأخرى ، إلى أن كثفت أوروبا هجمتها على الفكر الإسلامي وتمثل ذلك في الإعلام الانجليزي والفرنسي وفي الصحف والأفلام الألمانية ، وكل ذلك بدعوى العمل على إزالة التناقض بين المسلمين الأوروبيين وبين العلمانية الأوروبية وعلى الأخص فيما يتعلق برفض المسلمين أكل لحم الخنزير وشرب الخمر والرقص والفواحش ، واعتبر الأوروبيون ذلك الرفض من عوامل تخلف المسلمين وعدم مسايرتهم التطور والتحضر الأوروبي .

ثم كانت جولة وزير داخلية فرنسا لعدة دول عربية مردداً اتهام المسلمين بالتطرف الديني وباحثاً لدى الأجهزة الأمنية في الدول العربية عن وسائل لمواجهة هذا التطرف أو تخيير المسلمين بين الإذعان لقيم المجتمع الفرنسي وقوانينه أو الرحيل والعودة إلى بلادهم الأصلية (الأهرام في ١٣/ ٤/ ١٩٨٩ و ٢/ ٥/ ١٩٨٩) .

لهذا كان لا بد من الإسراع في نشر هذه المناظرة والتي احتوت على أقوال قطبي المناظرة والتعليقات والإجابات التي صدرت منهما في قاعة المناظرة .

كما رأى الناشر أن يضاف إلى ذلك عدة إجابات طُلبت من المستشار سالم

البهنساوي عن الأسئلة التي لم يتسع وقت المناظرة لها، وهذه اشتملت على ثلاثة فصول تضمنت دور العقل والمنهج العلمي ثم الحرية ومعاول الهدم وأخيراً التصور الإسلامي للمشكلة الاقتصادية.

ونأمل أن يساهم هذا الكتاب في تنوير العلمانيين العرب بمشكلة العقل الأوروبي وبحقيقة القضية وارتباطها بالاستعمار القديم والحديث، فالضرر قد أصاب المجتمعات من شيوع الفواحش ومن الخمر ولحم الخنزير واعتزال هذه القيم الفاسدة ليس كله اعتداء على حرية أحد ولا مساس بحقوق الآخرين ولا يمثل تناقضاً بين المسلمين وغيرهم ولا يعد ذلك تطرفاً في أي لغة أو قانون.

٤ جمادي الآخر ١٤١٠هـ **الناشر**
١ / ١ / ١٩٩٠ م

---

* ظلت أصول هذا الكتاب تحت أقدام الجيش العراقي الغادر منذ احتلاله الكويت في أغسطس ١٩٩٠ وبعد هروبه ثم عودة الحياة إلىٰ أهلها تولىٰ المؤلف إستكمال ما أتلفه الجيش الهارب.

بين يدي المناظرة

حقيقة العلمانية

يحلو لبعض الكتاب أن يتغنى بالعلمانية ويفتخر بالدعوة إليها وذلك تقليداً للفكر الأوروبي الحديث الذي لجأ إلى ذلك ليستطيع عزل الكنيسة بسلطتها وسلطانها عن المجتمع . وذلك أنه خلال فترات سيطرة الكنيسة هناك كانت تحرق وتقتل كل باحث في العلوم الطبيعية والتجريبية الأمر الذي اضطر معه جاليلو أن يقف أمام المحكمة (الكنسية) ليعلن سحب بحوثه التي تضمنت أن الأرض تدور حول الشمس فأعلن في جلسة المحاكمة يوم الثاني والعشرين من يونيو عام ألف وستمائة وثلاثين ، وقال : (أنا جاليلو جاليلي أبْلُغُ من العمر سبعين عاماً حضرت إلى المحكمة بشخصي راكعاً أمامكم قضاتي المقدسين والكرادلة ، أقسم أني صدّقت في الماضي ، وسأصدق في المستقبل ، كل ما تقوله كنيسة روما الكاثوليكية المقدسة وكل ما تعلمه للناس ، كما أعلن إنكاري للرأي المُدان الذي ناديت به وهو أن الشمس مركز العالم وأن الأرض هي التي تتحرك حولها) .

ومن المغالطات أن يشيع اللادينيون العرب أن **العلمانية** مشتقة من العلم ، ولكن مصطلح العلمانية مصطلح أوروبي ولذا وجب أن يؤخذ مفهومه من لغتهم .

ففي الإنجليزية **تعرف** باسم Secularism وهذه الكلمة تعني الدنياأو العَالَم فهي مشتقة من **العَلم** أي اللاديني .

أما العِلمانية المشتقة من العلم فهي في الإنجليزية تصرف بكلمة Scientism فالخطأ السائد عند المفكرين العرب هو الخلط بين العَلمانية التي تعني في لغة أوروبا المذهب الدنيوي ، وبين العِلمانية المشتقة من العلم[1] .

وقد أوضح جون راندال في كتابه تكوين العقل الحديث أن العلمانية ظهرت في

---

(١) منير البعلبكي ، قاموس المورد ص ٨٢٧ ، دار العلم للملايين ، بيروت سنة١٩٧٧ .

أوروبا في بداية القرن السابع عشر وأخذت عبر التاريخ عدة مفاهيم فكانت تعني فصل الدين عن الدولة في القرنين السابع عشر والثامن عشر ثم تحولت إلى إبعاد الدين عن الدولة فـي القرن التاسع عشر ، ثم حدث تغير طفيف في القرن العشرين بعودة السلطة الزمنية للكنيسة الكاثوليكية سنة ١٩٢٩ بإعادة قيام دولة الفاتيكان بعد أن أدمجت من قبل سنة ١٨٧٠ الولايات البابوية في مملكة بريطانيا ويشمل التغيير أيضاً السماح بقيام أحزاب مسيحية في دول أوروبا وتبني الأهداف السياسية المسيحية في أكثر من دولة .

وانتقلت هذه العلمانيةإلى الشرق في القرن التاسع عشر بشكل أساسي في مصر وتركيا وإيران ولبنان وسوريا ثم تونس ولحقت بهم العراق في نهاية القرن التاسع عشر ، أما باقي الدول العربية فقد انتقلت إليها في القرن العشرين(٢) .

ونظراً لعدم اشتمال الديانة المسيحية لقواعد تفصل أحكام المعاملات فقد تحكم البابوات في الشعوب وحرموا ما أحل الله فاستيقظ العقل الأوروبي على أن النهضة ترتبط بإبعاد هذا الدين عن الحكم .

فهي نزعة تعمل على الفصل بين الدين والدولة ، وهي من أكثر الكلمات غموضاً ولكنها رائجة سياسياً ، وقد يكون استعمالها من لوازم الاستعراض من بعض المثقفين للإيحاء بأنهم علماء أو ينتهجون العلم في التفكير ، وقد تكون من لوازم الاستعباط الذي يريد به بعض الهاربين من المشكلات أن يوحوا إلى الناس أن هروبهم هذا تكتيك محسوب كالهروب من شعار فلسطين عربية إلى شعار فلسطين علمانية ولا علاقة بين العلمانية نزعة وبين العلم منهاجاً(٣) .

وقد شاع أن العلمانية نشأت للتعبير عن نزعة الفصل بين الدين والدولة لأنها معارضة أو مناقضة للدين وسبب هذه الإشاعة أن العلمانية نتجت وظهرت عن

---

(٢) زكريا فايد ، العلمانية ــ النشأة والأثر . الزهراء للاعلام العربي . القاهرة سنة ١٩٨٨ ، ص ١١ .

(٣) عن الدكتور عصمت سيف الدولة في كتابه العروبة والإسلام ص ١٨٧ ، الناشر : دار المستقبل العربي ــ بيروت سنة ١٩٨٦ .

التيار الفكري الذي عرف في أوروبا باسم حركة التنوير وكان موجهاً ضد الكنيسة من فلاسفة ملحدين أمثال هوجو ، وهوبز ، ولوك ، وهيوم ، وروسو ، وبنتام ، وملى ، وسبنسر .

وحقيقة حركة التنوير الأوروبي أنها قد انتشرت بدورها من المدرسة الرشدية نسبة إلى الفيلسوف الغربي ابن رشد (١١٢٦ــ١١٩٨ م) حيث ترجم ميخائيل سكوت أغلب أعمال ابن رشد إلى اللاتينية في الفترة من سنة ١٢١٧ : ١٢٣٠ م .

ولهذا نشأ من بين فلاسفة التنوير الأوروبي من دافع عن الدين بسلاح العقل حتى يفهموا الدين منهم ديكارت ، وليبنز ، وباركلي ، وبتلر ، وكانت ، وهيجل ، ولوثر .

كما أن حركة التنوير الأوروبي هي امتداد للإصلاح الديني الذي قاده مارتن لوثر الألماني سنة ١٥٢٠ وذلك ضد استبداد الكنيسة حيث أن الدين كان قد تجسد في المذهب الذي روج له فولتير ويسمى المذهب الرباني الذي يؤمن بالله ولكن ينكر الرسل ويزعم أن العقل هو وسيلة الاتصال بالله حتى قال أحد كبار كهنة الكنيسة وهو الكاردينال ريج بيت لدبول في مجلس الكرادلة سنة ١٥٤٦ : (نحن المسؤولون عن التعاسة التي حلت من انتشار الهرطقة وانحدار الأخلاق المسيحية لأننا فشلنا في أن نزرع الحقل الذي سلم إلينا)[٤] .

فقبل المسيحية لم تظهر نزعة العَلمانية فقد كان اليهود قبيلة لها إله خاص هو يهوه ، حيث تأمرهم النصوص الموضوعة في التوراة على لسان إلههم يهوه في قوله « إنما أدفع إلى ابيكم يكان الأرض فتطردوهم من أمامي لا تقطع معهم ولا مع الهتهم عهداً » (في سفر الخروج ــ إصحاح ٢٣ ، آية ٣٢،٣٣) .

وهذا النص يعترف بآلهة أخرى **أي** للقبائل الأخرى فالدين كان المصدر الوحيد للسلطة خلال التاريخ حتى ظهرت المسيحية .

---

(٤) المرجع السابق ص ١٩٠ .

فلما جاء السيد المسيح رسولاً إلى بني إسرائيل خاصة أنكروه مع أن كتبهم قد بشرت به فذكرت أن النبي أشعيا قال إن المسيح سيولد من عذراء وأن النبي **دواد** قال من أحد تلاميذ المسيح سيخون ويسلمه إلى أعدائه ولكن هذا كله مع معجزات المسيح لم يقنع اليهود باتباعه . لأنه قد فصل بين النبوة والملك أي فصل بين الدين والدولة مما يخرج الملك والسلطة من أيديهم حسبما يروي الإنجيل حيث ذكر أنهم اختبروه حيث أرسل إليهم الفرينسيون وهم طائفة من علماء اليهود وبعض الهيرودسيين وهم من علماء الامبراطورية الرومانية فسألوه « أيجوز أن تعطى الجزية **لقيصر** أم لا؟ قال : لماذا تجربونني يا مراؤون أروني معاملة الجزية؟ فقدموا له ديناراً فقال لهم لمن هذه الصورة والكتابة؟ قالوا : لقيصر ، فقال لهم : أعطوا إذاً ما لقيصر لقيصر وما لله لله » أنجيل متى (٢١:١٧) .

فالعلمانية في نشأتها تتلاءم مع الديانة المسيحية ولم تكن خارجة عنها أو منكرة لحقيقة هذه الديانة بل هي من أركان الديانة المسيحية فكان تلاميذ المسيح يمارسون السلطة الدينية بأمر وتعليم منه حيث جاء في الإنجيل أنه قال لهم : « من يقبلكم يقبلني ومن يقبلني يقبل الذي أرسلني » متى : ٤٠ ، كما جاء في الإنجيل : « وأنا أقول لك أنت يا بطرس وعلى هذه الصخرة ابني كنيسة وأبواب الجحيم لن تقوى عليها وأعطيك مفاتيح ملكوت السموات وكل ما تربطه على الأرض يكون مربوطاً في السموات وكل ما تحله على الأرض يكون **محلولاً في السموات** » انجيل متى ١٦ : ١٨:٢٠ .

فهذا النص قد جعل أمور الحلال والحرام بيد رجال الدين الذين كان يعينهم القياصرة منذ أن انتشرت المسيحية في الأمبراطورية البيزنطية على يد الامبراطور قسطنطين الأكبر فكان الامبراطور هو الذي يختار البطاركة وكان يرأس مجلسهم ويكون رأيه مرجحاً عند تساوي الأصوات(٥) .

وفي الامبراطورية الرومانية الغربية الكاثوليكية كان الامبراطور شرلمان هو الذي يعين رجال الدين ويراقبهم ولهذا لم يكن رجال الدين هم أكثر الناس علماً بل أكثرهم تبعية للحاكم .

---

(٥) المرجع السابق ص ٢٠٤ .

ففصل الدين عن الدولة في أوروبا المسيحية كان كان له صراع بين الكنيسة والدولة . فقد كانت الكنيسة تابعة للسلطة أي للدولة في عهد الامبراطورية الرومانية حيث كان يحكمها طغاة من أمثال كليجولا وكلوديوس ونيرون ، ولهذا كان على رجال الدين أن يطيعوا السلطة حتى يتركوا ما لقيصر لقيصر ومالله لله ، فقد قال بولس : « إن من يقاوم السلطة يقاوم إرادة الله ويستحق إدانة الكنيسة »[٦] .

ولما أصبحت الكنيسة هي دين الامبراطورية الرومانية كانت القوة للكنيسة مع بقاء الفصل بين الدين والدولة نظرياً ، فابتدعت الكنيسة تفسيراً لحقها في السيطرة فنشأت نظرية الحق الإلهي أو مذهب آباء الكنيسة ، ومؤداها أن الله هو الحاكم وأنه يختار لذلك من يشاء من الناس فيصبح سيداً أو حاكماً بأمر الله وهذا أصل كلمة السيادة ، فهي في اللاتينية : « المختار من الله » ، ثم دخلت هذه الكلمة في الاصطلاح القانوني في القرن السادس عشر وأصبحت السيادة للشعب ومنها نشأت الديمقراطية .

كما ابتدع الملوك نظرية أخرى للإبقاء على سلطانهم هي نظرية (الملكية المقدسة) أو (العناية الإلهية) ، وهي تنكر احتكار البابوات لإرادة الله فترى النظرية أن إرادة الله توجه عقول الناس لتصبح السلطة في يد أحدهم فتكون عناية الله هي التي هيأت له ذلك فما ينبغي لأحد أن ينازعه هذه العناية أو يحد منها لأن هذا تحدّ لإرادة الله .

يقول جان دي باري في كتابه (السلطة الملكية والسلطة البابوية) : (إن الحياة تنقسم إلى قسمين متميزين ، ومنفصلين ، قسم مادي وقسم روحي ، وأن الله يختار لكل منهما من يتولاه ، فاختار الكنيسة للحكم الروحي واختار الملك للحكم الدنيوي ، فالملك قد تلقى سلطته بدون وساطة من الكنيسة)[٧] .

---

(٦) المرجع السابق ص٢٠٨ والشريعة المفترى عليها للمؤلف .

العلمانية العربية :

من هذا العرض الموجز يتضح أن الفصل بين الدين والدولة هو من خصائص الديانة النصرانية ، فقد نشأت العلمانية في المجتمع المسيحي لأسباب خاصة بهذا المجتمع ، لهذا قال الدكتور عصمت سيف الدولة : (ولا يمكن أن يكون للعلمانية معنى في مجتمع غير مسيحي ولهذا فالدعوة إلى العلمانية في المجتمعات الإسلامية كلام فارغ لإنعدام مضمونه)[٨] .

(فضلاً عن أنه لا مجتمع بلا دين ، وليس ثمة أكثر تديناً بل تعصباً دينياً من مجتمع الملحدين ذاته إذ ليس الإلحاد إلا دين الملحدين يقوم فيهم بوظيفة أي دين)[٩] .

(إن مصدر مشروعية أي نظام هو في قبول الناس له ، ولما كان أغلب الشعب العربي مسلماً فإن قبولهم للعلمانية يكون وليد إكراه على الناس حتى لا يبقى الإسلام ديناً لله وأن يبعد كدين للحياة في الوطن لتخلو الحياة لنظام لا يتفق مع الإسلام)[١٠] .

والذي يثير العجب أن العلمانيين يتغنون أنهم ضد الاستبداد بينما العلمانية هي التي تمكن المستبدين في العالم العربي من التحكم في الشعوب لأنها نظام يخولهم حق التحليل والتحريم كما يشاؤون فتبيح لهم ما حرمه الله وتيسر لهم ذلك ، ولا يتحقق ذلك إلا بإكراه الشعوب على نظام لا يتفق مع دينهم وعلى أشخاص ليسوا أهلاً للقيادة . والمناظرة التي ننشرها في الصفحات التالية تعكس إلى أي حد يتمسك العلمانيون بدينهم أي معتقداتهم وهي اللادينية ، على حجتهم وتعرية الباطل الذي يدينون به ويدافعون عنه .

(٧ــ٩) المرجع السابق ص ٢١٢ و ص ٢٣٥ و ص ٢٣٦ .

(١٠) المرجع السابق ص ٢٤٠ بند ١٣ .

الفصل الأول

محاضرة المستشار سالم البهنساوي

- العلمانية ودور العقل
- أوروبا وبداية العلمانية
- حقيقة الحكومة الدينية
- الاستعمار والعلمانية الدينية
- تشريع الله وشبهات العلمانيين
- الشورى والديمقراطية
- ضمانات التطبيق وحقوق غير المسلمين
- الإسلام والمسألة الاقتصادية
- موقف الإسلام من المرأة



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين ، سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا ، إنك أنت العليم الحكيم .

أيها الأخوة ، أحييكم بتحية الإسلام ، فالسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

وبعد :

فيبدو أن هذه المناظرة محاضرة المفاجآت ، فقد اتصل بي مساء الأحد أحد أبنائي من الكلية لتحديد موعد لهذه المناظرة لتكون اليوم الأربعاء ، وطلبت أسبوعاً كمهلة ، خصوصاً أنه كان عندي انشغال مع بعض الضيوف القادمين من أوروبا في مؤتمر الهيئة الخيرية العالمية الإسلامية ، ولكن لظروف الجامعة أصروا على الموعد ، فتحدد هذا الوقت ، ثم تحدد هذاالمكان وكما ترون ، كنا نود أن يكون في مسرح الجامعة ولكن دون جدوى ، ونناشد إدارة الجامعة بأن يكون العلم الذي يتلقاه الطلاب من الأساتذة متفقاً مع العمل ومع اللوائح ، فالإذن للانتقال إلى مكان آخر يحتاج إلى إذن من عميد شؤون الطلبة ثم مدير الجامعة على الرغم من أن المحاضرة مصرح بها من هؤلاء وعلى الرغم من ازدحام المكان قبل أن تبدأ المناظرة(١١) فنناشد إدارة الجامعة والمسؤولين فيها أن يلاحظوا أن أمور المركزية القاتلة لا مجال لها اليوم في عصرنا .

ما يتعلق بموضوع العلمانية والإسلام أحب أن أوضح ما تعلمونه جميعاً وهو ما ورد في القرآن الكريم والسنة النبوية أن الله تبارك وتعالى ما خلق هذا الإنسان عبثاً ، وإنما خلقه لرسالة ، قال تعالى : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا

---

(١١) ظل الأستاذ الدكتور حسان حتحوت واقفاً مع عدد كبير منهم أساتذة بالجامعة وسيدات طوال المناظرة حتى الحادية عشرة والنصف مساءً أي أكثر من ثلاث ساعات .

﴿تُرْجَعُونَ﴾[١٢] . إن الله تبارك وتعالى خلق هذا الإنسان لرسالة سامية ، ولمهمة إنسانية هي عمارة هذه الأرض وعبادة الله فيها ، وبالتالي فإن ما يتغير بتغير الزمان والمكان قد تركه الله تعالى للإنسان ليستفيد من تجاربه وتجارب الآخرين .

بل ومن تجارب العوالم الأخرى فإن القرآن الكريم يقص علينا قصة ابني آدم عندما قتل الأخ أخاه وحمله على ظهره حيث لم يكن قد علم كيف يدفن الأخ أخاه ، فعلّمة الله أن يأخذ من تجارب الطير ﴿ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ﴾[١٣] فكل ما يتعلق بالتجارب البشرية تركه الإسلام للناس . والنبي ﷺ ضرب مثلاً عملياً في ذلك فقال لهم : « لا تؤبروا النخل » فلما امتثلوا لم ينتج الثمار فسألوا فقال لهم : « أنتم أعلم بأمور دنياكم »[١٤] ، وأوضح في مرات عديدة « أنا بشر إذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به ، وإذا أمرتكم بشيء من رأيي فإنما أنا بشر »[١٥] أي ما يُحدِّث به في الحلال والحرام فهو من وحي الله ، وما يُحدِّث به في أمور الدنيا فهو اجتهاد ، أي يخضع للصواب والخطأ .

دور العقل ونطاقه :

ـ إن هذه القضية قد جاء بها رسل الله لأن الله تبارك وتعالى لم يترك الإنسان سدى وإنما أنزل معه التشريع فيما لا مجال للعقل فيه ، قال الله تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ ﴾[١٦] .

ـ ما يخضع للتجارب البشرية فقد تركه الله للناس ، ووردت أحاديث كثيرة في ذلك ، قال تعالى : ﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ﴾[١٧] ،

---

(١٢) المؤمنون / ١١٥ .

(١٣) المائدة / ٣١ .

(١٤،١٥) صحيح مسلم ٧ / ٩٥ .

(١٦) الحديد / ٢٥ .

(١٧) العنكبوت / ٢٠ .

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[١٨].

ـــ في مجال الطب قال النبي ﷺ : « ما أنزل الله داء إلا وأنزل له دواء ، فتداووا عباد الله »[١٩] .

وهذا الذي أصابته جنابة ثم استعمل الماء والبرد قارس وأدى إلى أن هلك ومات ، فقال النبي ﷺ لمن حوله : « قتلوه قتلهم الله ، إنما شفاء العيّ السؤال ـــ أي شفاء الجهل السؤال ـــ كان يكفيه أن يعصب جرحه ثم يمسح عليه »[٢٠] .

أوروبا وبداية العلمانية :

هكذا أنزل تشريع الله إلى البشرية ، يفرق بين ما يخضع للتجارب وغيره ، ولكن رجال الدين المسيحي في أوروبا لأمور عندهم ، كما كتب في إنجيل متّى زعموا أن السيد المسيح قال : (ما تحلونه في الأرض يحله الله في السماء وما تحرمونه في الأرض يحرمه الله في السماء)[٢١] .

حقيقة الحكومة الدينية :

ـــ وترتب على ذلك أن هؤلاء الباباوات زعموا أنهم إنما يتكلمون بإذن الله وينقلون عن الله ـــ فيحلون ويحرمون كما يشاءون ، بل فهذا النص يفيد أن الله خولهم ذلك (وما تحلونه أنتم في الأرض يحله الله في السماء وما تحرمونه أنتم في الأرض يحرمه الله في السماء) . ونتج عن ذلك ما عرفته البشرية من صكوك الغفران والحرمان .

ـــ تلك الصكوك التي نشأ عنها ما عرف في أوروبا الحكومة الدينية وما زعموه من أن الله قد عين هؤلاء ليحكموا الناس وأنهم معينون من قبل الله فلا سلطان لأحد عليهم ، كما أن لهم حق التشريع الإلهي .

---

(١٨) آل عمران / ١٩٠ .

(١٩،٢٠) صحيح الجامع الصغير ٥٤٣٤ و ٥٤٣٥ و ٤٢٣٨ و ٤٢٣٩ .

(٢١) انجيل متّى ١٦ : ١٨ـــ٢٠ والحديث في الإنجيل موجه إلى بطرس في حضور تلاميذ المسيح الاثني عشر ١٠ : ٤٠ .

ــ هذه البشرية لم تنس أنه لما اختلف الإمبراطور هنري الرابع مع البابا جريجوري السابع على من له حق تعيين الأساقفة ، أصدر البابا قراره بحرمان الإمبراطور .

ــ أي أصدر صكاً بالحرمان له من طاعة الناس ومن الجنة ، ولم يكن من الإمبراطور إلا أن يلجأ إلى البابا ليأخذ صكاً آخر بالغفران والعفو عنه ، هنا أمر البابا أن يظل الإمبراطور منتظراً حافي القدمين ثلاثة أيام في الثلوج في أوروباحتى يفتح له الباب ويأذن له .

تعلمون جميعاً أن هؤلاء قد حرَّموا على الناس أموراً لم يحرمها الله سبحانه وتعالى .

ــ لأنهم تجاوزوا أمر دينهم وشرعوا فيمايخضع للتجارب ، وفيما كان مجاله العقل فحرَّموا على الناس كل أمور البحث العلمي ، وأنتم تعلمون الأعداد التي قتلت من العلماء في هذا الشأن .

نضرب مثلاً واحداً عندما اكتشف التخدير حاكموا الطبيب الذي فعل ذلك ، وزعموا أن الله قال لحواء لسوف تلدين بالآلام فكيف بكم تأتون بتخدير يمنع عنها الآلام .

هذا الأمر الذي نتج في أوروبا نشأ عنه ردود أفعال متباينة ، من ذلك أن ادعى الفلاسفة أنهم يتصلون بالله عن طريق الفعل ولا حاجة لهم بالباباوات بل ولا بالأنبياء ولا بالوحي . رد الفعل الاخر ما علمتموه من أمر العلمانية التي نشأت مع الثورة الفرنسية التي انتهت بفصل الدين عن الدولة ، وعندما نقول الدين فالأمر يتعلق بالدين المسيحي الذي فصلوه عن الدولة ليكفوا عن الناس مآسي ومظالم الباباوات هناك . تشهد بذلك النصوص ، ويشهد بذلك الواقع العملي .

فصل الدين عن الدولة في العالم العربي :

ــ إن المسلمين عندما غفلوا عن ذلك اتبعوا الشهوات وانحطوا إنحطاطاً أدى إلى تخلفهم وإلى استعمال أوروبا لهم جاءت أوروبا وحملت معها إلى العالم العربي والإسلامي نظرية فصل الدين عند الدولة وعن الحياة ، وذلك على الرغم من أن بلاد

الإسلام لا علاقة لها بالسبب الذي اضطر هؤلاء لفصل الدين عن الدولة ، وبعد ذلك قد أنشأت جيلاً من المثقفين على أساس النظام العلماني .

ـــ وعلى أساس ادعاء أن الدين كله إسلاماً أو مسيحياً أو يهودياً إنما يجب أن يعزل عن الدولة حسبما ساد في أوروبا ، وابتدعوا بين المسلمين أموراً ، ومقولات كلها تتعلق بالباباوية ولا علاقة لها البتة بالإسلام والمسلمين .

ـــ والاستعمار في هذا ما كان يريد للبلاد العربية بذلك خيراً وهؤلاء صرحوا في هذا تصريحاً واضحاً .

فذكر مرة المعتمد البريطاني في مصر في كتابه (بريطانيا العظمىٰ في مصر) يقول : [سنرحل عن مصر على أن تحكم بأيد مصرية وعقول بريطانية]

والمستشرق الانجليزي « جب » الذي أصبح عضواً في مجمع اللغة العربية ، في كتابه (حيثما يتجه الإسلام) يقول : [يجب أن نحمل العالم الإسلامي على حضارة الغرب] ، ويقول : [عندما نقول حضارة الغرب لا نعني الحضارة المادية فقط بل يجب أن يأخذ المسلمون بأخلاق أوروبا] ، ثم يقول : [والتي هي أخلاق الكنيسة المسيحية] .

وللتاريخ ، الكنيسة المسيحية في أصلها وفيما نزل في الإنجيل لا علاقة لها البتة بالأخلاق الأوروبية السائدة حالياً والتي هي نتاج الفكر اليهودي الذي ادعى أن الغاية تبرر الوسيلة وأن القيم والأخلاق نسبية تتغير من زمن إلى زمن ومن عصر إلى آخر وبالتالي أحل هؤلاء الفواحش ليس بين الرجال والنساء فقط بل تعلمون أن بلاداً منهم أحلت الفواحش فيما بين الرجال أنفسهم وبالتالي فهذا المستشرق إذا زعم أن هذه هي أخلاق الكنيسة المسيحية ، إنما نقول له إن المسيحية بريئة من ذلك وأنتم إنما تحلون هذا بأهوائكم..

هكذا انتقل أمر فصل الدين عـن الدولة إلى البلاد العربية وهو عندما ساد أوروبا إنما سادها لما تعلمونه من هذا الإنحراف الديني وادعاء هؤلاء إنهم معصومون من الخطأ وأن ما ينطقون به هو من عند الله وهم كاذبون في ذلك ـــ حسبما صرح

القرآن الكريم ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾[٢٢].

العداء للإسلام :

تحول الأمر وهو مبدأ (فصل الدين عن الدولة) في البلاد الإسلامية إلى عداء للإسلام ذاته ولتشريعات الإسلام على الرغم من أن هذه التشريعات قد أعلن رجال القانون الغربيون أنها تصلح لكل زمان ومكان وهذا أمر سأشير إليه في كلامي عن شبهات العلمانيين.

تحول الأمر إلى عداء للإسلام وهم يزعمون أن الحكم للشعوب حيث تختار منها الحكام والتشريعات طبقاً للنظام الديمقراطي.

وهذا عندهم صحيح وسائد لأن إقرار أي تشريع إنما يكون من واقع رضا الناس بهذا التشريع فإذا سخط الناس على هذا التشريع أو حاربوه لا يمكن أن يستقر.

ولكن هذه المقولة إذا تعلقت بالإسلام حاربوها وأكرهوا المسلمين أن يحكموا بتشريعات لا صلة لها بواقعهم ولا بدينهم وأيضاً تشريعات قد ثبت في أوروبا أنها أضلت الناس، فمثلاً ما تعلق بالخمر وتحريم لحم الخنزير وما تعلق بالفواحش، كل هذه المحرمات التي نهى عنها القرآن أثبتت الدول غير المسلمة ضررها على الناس.

ولكن مع هذا ما زال هؤلاء يتغنون بأن هذا التحريم إنما يصادم ما قيل بفصل الدين عن الدولة، على الرغم من أن قضية فصل الدين عن الدولة التي نسبت للسيد المسيح فيما جاء في إنجيل مَتَّى لها سبب آخر، فاليهود عندما تآمروا على السيد المسيح أرسلوا له أحد علماء السلطان في الإمبراطورية الرومانية.

فسأله : أيها السيد المسيح، إنك صادق هل ندفع الجزية لقيصر أم لله؟ رد السيد المسيح على هذه الخديعة فقال له : أين عملتكم ـ أي الدينار ـ وقال ما هذا الذي

---

(٢٢) آل عمران / ٧٥.

على العملة؟ فقال له : صور قيصر ، فقال له : [أعطوا إذاً ما لقيصر لقيصر وما لله لله][23] .

هذه المقولة انتقلت وأصبحت هي الدستور الذي يريدون إكراه المسلمين عليه ، حتى أن نظمي لوقا من علماء النصارى كتب كتاباً بعنوان (محمد الرسول والرسالة) قال فيه : [إن مقولة (دع ما لقيصر لقيصر وما لله للـــه) يراد بها أن يشطر هذا العالم إلى شطرين نصفه لله ونصفه لقيصر ، ولكن القرآن يقرر ﴿ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ﴾] آل عمران ١٥٤ .

تشريع الله وشبهات العلمانيين :

سنتناول بعد ذلك بإيجاز حكم الله الذي يقول ﴿ **إن الأمر كله لله** ﴾ هل يتعارض مع مصالح الناس أو يضر بالناس أو بتغيير مع الزمان والمكان أم لا ؟

جاء العلمانيون في العالم العربي وأرادوا تطبيق كل ما كان في أوروبا على النظام الإسلامي وكانت لديهم شبهات ، ولن أقول ما قاله المفكر القومي الدكتور / عصمت سيف الدولة في كتابه (الإسلام والعروبة) ، حيث عقد فصلاً عن **العلمانية قال** فيه :

لا مجال للعلمانية في البلاد الإسلامية ، لأن **هؤلاء** الذين ينادون بالعلمانية في البلاد الإسلامية إنما ينادون لذلك لأمور ثلاثة ذكرها وأنقلها لكم :

يقول هو لا أقول أنا :

١ ــ بسبب ادعاء العلم لأن العلمانية في اسمها تتصل بالعلم .

٢ ــ السبب الآخر للهروب من الحقيقة كما فعل الفلسطينيون حين قالوا : (فلسطين علمانية بدلاً من فلسطين عربية) .

٣ ــ الأمر الثالث هو أنه يراد بها التهرب من الأخلاق والقيم .

ولذلك نجد اتفاقاً بين الماركسية والرأسماليين حول ما يتعلق بتنحية تشريع الإسلام لأن الأمر يتصل بهدم الأخلاق وهذا يحقق منفعة في الدنيا للفريقين .

---

(٢٣) إنجيل مَتّى ٢١ : ١٧ .

شبهات العلمانيين :

سأشير بإيجاز إلى بعض شبهات العلمانيين لتتضح الأمور :

أولاً : الحكومة الدينية :

أولا هذه الشبهات ما يتعلق بالحكومة الدينية ، فيظنون ويرددون أنه إذا طبق التشريع الإسلامي في أي بلد فهو عودة للحكومة الدينية في أوروبا .

والحكومة الدينية هذه عبارة عن أشخاص كانوا يزعمون أن الله قد عيَّنهم ليحكموا الناس باسمه وأن ما ينطقون به هو من عند الله ، وهذا لو قاله مسلم لكان خارجاً عن دين الإسلام فالإسلام كما جاء في القرآن الكريم قد ختمت رسالته بالنبي ﷺ ليصحح للبشرية هذه الانحرافات .

قال الله تبارك وتعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾[٢٤] ، فالنبي ﷺ إنما بعثه الله لكشف باطل الباباوات وليرفع هذه المظالم ويرفع ما سميّ بالحكومة الدينية أو غيرها .

والحكومة الدينية أشخاصها يزعمون أنهم معينون من قِبَل الله ، لا يقبلون رأي أحد ولا مشورة أحد بينما القرآن الكريم جعل دستور المسلمين ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾[٢٥] ، بل إن النبي ﷺ عندما أشار على المسلمين في غزوة أحد أن يظلوا في المدينة ليستدرجوا المشركين إليها ويسهل الدفاع عنها ، رفض الشباب ذلك وقالوا يجب أن نخرج لملاقاتهم ، ولما كان الشباب أغلبية وكان هذا من الأمور التي تخضع للتجارب فقد نزل النبي ﷺ على رأيهم ثم هُزموا ، ولكن الله تعالى أنزل قرآناً يؤكد على الشورى ، قال الله : ﴿ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ ﴾[٢٦] ،

---

(٢٤) الأعراف ١ / ١٥٧ .

(٢٥) الشورى / ٣٨ .

(٢٦) آل عمران / ١٥٩ .

وأمره أيضاً بالشورى على الرغم من ذلك لأن العبرة بهذا المبدأ لا بمثل هذه النتائج .

مثال ثالث تلك الرقيقة العبدة بريرة اشترتها السيدة عائشة وأعتقتها لوجه الله فهي أسيرة بيت النبوة ولكن مع هذا خالفت النبي وأعلنت أنها لا حاجة لها في زوجها مغيث ، وزوجها كان يحبها فصاح وبكى أريد بريرة ، والنبي كان يقف ومعه العباس ورأى هذا المنظر زوجها يدعوها وهو يبكي. وهي تقول لا حاجة لي فيه فتقدم لها النبي ﷺ ، بعد أن قال للعباس يا عباس ألا ترى من حب مغيث لبريرة وبغضها له ، توجه إليها أن تظل مع زوجها وأن لا تفارقه ، ماذا قالت وهي عبدة أمية؟ كيف علمها الإسلام الحرية والتفرقة بين حكم الله والشفاعة ، قالت : يا رسول الله أهذا تشريع من الله أم أنك شافع؟ قال : « إنما أنا شافع » قالت إذن لا حاجة لي في مغيث وردت الشفاعة ، والتزم النبي بذلك مسروراً راضياً لأن هذا هو حكم الله للناس .

مثال رابع في غزوة بدر اختار النبي ﷺ مكاناً للمعركة فجاء الحباب بن المنذر فقال : يا رسول الله : [أرأيت هذا المنزل ، أمنزلاً أنزلك الله ، ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه أم هو الرأي والحرب والمكيدة . قال هو الرأي والحرب والمكيدة . قال الحباب : يا رسول الله فإن هذا ليس بمنزل ، أمضي بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم فنعسكر فيه ثم نغوِّر (أي نردم) ما وراءه من الآبار ثم نبني عليه حوض فنملأه ماء ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون ، فقال رسول الله ﷺ : لقد أشرت بالرأي ثم أمر بإنفاذه] .

والشورى في الإسلام واجبة في الأمور التي تخضع لآراء الناس وتجاربهم ، وليست وحياً من الله تعالى ، فإذا كان الرسول الذي ينزل عليه الوحي من الله يخضع للأغلبية في الأمور الدنيوية وينزل على رأي أهل الخبرة ، فلا يوجد في الإسلام أشخاص يختارهم الله يحكمون الناس بغير مشورة ويزعمون أن حكمهم هو حكم الله ، فالشورى من أركان الحكم في الإسلام وفريضة من فرائضه وهي في هذا تلتقي مع الديمقراطية .

ثانياً : الإسلام والديمقراطية :

قالوا إن الحكم الإسلامي أو التشريع الإسلامي يصادر على الديمقراطية وفيه إلغاء للحريات والرأي الآخر لا وجود له وأن نظام الحزب الواحد المعروف في روسيا سيطبق وأن التصفيات الدموية ستكون ، لقد كتب في ذلك من كتب وتغنى من تغنى ومنهم ماركسيون لا يعارضون هذا في نظامهم. والنصوص والواقع تكذبهم وتثبت عكس كلامهم ، ومن اختلف في شأن الديمقراطية فذلك لجهله بها وفي الإسلام الحكم على الشيء فرع من تصوره ، والديمقراطية ببساطة تقوم على أمرين :

الأمر الأول : وهو أحقية نواب الشعب في إصدار التشريعات التي تتفق عليه الأغلبية ، لا ينظر في ذلك إلى شرع الله أو غيره ، في هذا الجانب لا أقول الإسلام يصطدم معها فقط ، بل يحظر ذلك إذا خالف القرآن والسنة.

يوجد لكل أمة وفي دستورها قاعدة تمنع على نواب الشعب أموراً تتعلق بمقومات الأمة فلا يمكن في نظام رأسمالي أن يأتي أغلبية النواب ويقولون نريد الشيوعية ، وفي النظام الشيوعي لا تستطيع الأغلبية المطلقة تلغي نظام الحكم الشيوعي هذا أمر أقرته الشعوب والناس وساروا عليه ، فإذا كان الإسلام قبلهم وقبل أن يعرفوا هذا قد وضع هذا النظام هل يصبح بدعاً من القول وتكون هذه دكتاتورية الإسلام.

الإسلام جاء فيما يتعلق بالحرام والحلال وأعلن صراحة أنه لا سلطان للناس في ذلك لأنه أمر لا يخضع للتجارب ولا تدركه عقول الناس.

ومن جرَّب فيه فقد ضلّ كما رأيتم كيف أن الفواحش عندما أبيحت ما هي حال هذه الأمم. فضلاً عن ذلك ما زلنا نتحدى البشرية جمعاء أن يثبت هؤلاء مجتمعين أن حكماً ما في القرآن أو السنة الصحيحة فيه ضرر للناس أو أثبت العلم خلافه.

الدكتور موريس بوكاي إنما أعلن إسلامه في فرنسا عندما بحث وتأكد له فيما كتبه أن كل ما ورد في الإنجيل والتوراة عن الإنسان والكون والحياة إنما هو ضرب من الخرافة وكل ما ورد في القرآن والسنة عن الإنسان والكون والحياة إنما يتفق مع العلم تمام الاتفاق.

أريد أن أضرب لكم مثلاً واحداً لو لم يكن الأمر وحياً من الله فكيف علم النبي ﷺ حقائق طبية لم تكتشف إلا في عصرنا .

في عصر النبي ﷺ ظهرت الكمأة ـــ أعتقد أنها تسمى هنا الفقع ـــ ظهرت عند العرب ليس لها جذور ولا تزرع فخاف منها الناس وقالوا إنها جدري الأرض وابتعدوا عنها ، تعلمون أن النبي ﷺ أميّ والأميّة لأنه أمر يتعلق بالتشريع حتى لايظن أحد أنه أخذ من هؤلاء وهؤلاء ـــ ماذا قال ـــ لهم النبي الأميّ ؟ قال : [إنها ليست جدري الأرض إنها من المن وماؤها شفاء للعين] .

لم أكن أعلم شيئاً عن هذا الحديث ، وجاءتني رسالة منذ عدة سنوات من طبيب صديق لي اسمه الدكتور « المعتز بالله محمد مراد المرزوقي) مدير مستشفى الرمد في شبين الكوم وقال ... أريد كمية من الكمأة لأعمل تحليلات عليها وأتأكد من صحة هذا الحديث ، فسألت عنها وأرسلت له كمية وكنت لا أعلم كيف تحفظ فغسلتها ، فخربت ، فسألت أهل البلد قالوا لا تغسلها ، فأرسلتها كما هي ، ومجمدة ، وأجرى عليها التجارب في معامل في موسكو ، ثم حولها إلى بودرة ، وحيث يوجد لديه الكثير من المرضىٰ الفقراء فقسمهم إلى قسمين ، قسم يضع لهم ما عرف من الأدوية والمراهم وغيرها والمضادات ، وقسم آخر يضع لهم مادة الكمأة ، وكانت النتيجة المدونة في كتاب صدر هنا في الكويت عن المؤتمر الأول للطب العالمي الإسلامي أن أكثر من ٦٠٪ أو ٧٠٪ من هؤلاء جاء شفاؤهم عن طريق الكمأة أكثر من الشفاء عما تعارف عليه الأطباء .. فهذه المادة وحدها حكم النبي ﷺ فيها منذ خمسة عشر قرناً من الزمان ويثبت الطب اليوم صحته ، ولكن يوجد مع هذا عند المسلمين قاعدة ـــ قالها حسن البنا رحمه الله في كتابه رسالة التعاليم قال ـــ :

عند تعارض حقيقة علمية مع حقيقة دينية ، فالحكم هنا أن يرجح القطعي منها على الظني . إن كانت الحقيقة العلمية هي القطعية ترجح لأن القرآن والسنة ليسا مصدراً عند المسلم لإثبات الحقائق العلمية وإنما هو كتاب هداية فيما يتعلق بالتشريعات ولهذا يؤول فيه ما تعلق بهذه الأمور ، وإذا كان كل من الحقيقة العلمية

والحقيقة القرآنية ظنية فالأولىٰ أن نأخذ بما في القرآن حتى تثبت الحقيقة العلمية أو تنهار .

محاسبة الحكام :

الأمر الآخر فيما يتعلق بالديمقراطية وما يتعلق باختيار الحاكم وعزله ومحاسبة الحاكم ولا تعارض بين الإسلام والديمقراطية . بل هذا الأمر الإسلام فيه تفوق النظام الديمقراطي ، فالحاكم إنما تختاره الأمة وليس معيناً من عند الله ، وتعزله الأمة وتحاسبه وفي محاسبة الأمة للحاكم أشد من محاسبة النظام الديمقراطي له ، فالحاكم في الإسلام يحاكم أمام المحاكم العادية وليس له ضمانات خاصة ولا محاكم خاصة . فكل الضمانات الموجودة في النظم الأوروبية للحاكم خاصة لا علاقة للإسلام بها فالحاكم فيه كآحاد الناس في المحاكمة والضمانات .

ثالثاً : ضمان التطبيق :

ولهذا أحب أن أشير إلى ما يزعمه بعض الماركسيين من أن التطبيق للشريعة ، والحكم في الإسلام ، إنما كان في خلافة أبي بكر وعمر فقط وبعد ذلك في عصر عثمان عادت الأحكام للرأسمالية والنظام الرأسمالي .

أي أن الفترة الأولىٰ كانت استثناء وتتعلق بالعبيد وما إلى ذلك من مزاعم هذه المقولة ، أردت أن أبين ضلالها وافتراءها ببعض الأمثلة القليلة ، فالعدل ليس فقط في الصدر الأول من الإسلام ولكن حتى العصور المتأخرة كان العدل فيها سائداً .

١ ــ هارون الرشيد الذي كتب عنه أنه ملك الخمر والنساء وكتبت عنه روايات كثيرة أكثرها افتراءات ، دعي أمام القاضي أبي يوسف لاختلافه مع رجل على ملكية بستان لم يكن مع المدّعي وهو رجل من عامة الناس أي عقد بملكية للبستان ، والخليفة هارون الرشيد قال : البستان أنا اشتريته واشتراه لي المهدي ، فطلب المدعي وهو من عامة الناس أن يحلف للخليفة اليمين .فلم يحلف فحكم ضده القاضي أبو يوسف .

٢ ــ السلطان الظاهر بيبرس وقف أمام القاضي ابن عطاء الحنفي لخلاف مع رجل حول حوطة السلطان أراده لقصره أي للأملاك العامة ــ بلغتنا اليوم ــ ومذهب السلطان يبيح ذلك ، فرفض الرجل نزع ملكيتها فطلب الملك أن يحكم القاضي حسب مذهب السلطان ، فرفض القاضي ذلك وحكم ضده لصالح هذا الرجل.

٣ ــ القاضي ابن عين الدولة رفض أن يشهد أمام الملك الكامل أيوب ورد شهادته لأنه ليس عدلاً في الإسلام حيث اشتهر عنه أنه له حفلات غناء وما إلى ذلك من الرقص .

فوجود التشريع الإسلامي في ذاته ضمانة للتطبيق ، وهذه أمثلة قليلة تبين افتراءات الماركسية والمستشرقين وغيرهم من خصوم الإسلام فيما يشيعون به عند تطبيق الإسلام وضمانات الإسلام إنما كانت فقط في عهد أبي بكر وعمر .

٤ ــ وأيضاً الإسلام في نظام محاسبة الحاكم ليس كما في النظم الديمقراطية ، إنما يجعل ذلك واجباً ، فمن شروط البيعة (أن تقولوا الحق ولا تخافوا لومة لائم) .

فلا يوجد أي نظام ديمقراطي في أي بلد في العالم يجعل محاسبة الحاكم التزاماً على المحكوم أو على الشعب والإسلام يجعله التزاماً في بيعة الأفراد للحاكم يلتزمون بذلك . ففي البيعة « وأن تقول الحق وألا تخشى في الله لومة لائم) .

فلا يخشون من فرد مثلهم ، إنما يخشون الله لا الحاكم ، ولهذا فالنبي ﷺ يقول : « سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب ورجل قام إلى إمام جائر فنهاه فقتله »[٢٧] .

٥ ــ وأيضاً النظام الإسلامي يتميز عن الديمقراطية في حق عزل الولاة لمجرد الشكوىٰ منهم حتى لو لم يثبت ضد الوالي شيء فيكفي عدم رضا الناس عنه .

فالنبي ﷺ عزل العلاء بن الحضرمي أمير البحرين لشكوى الناس منه ، وتعلمون أن عمر بن الخطاب عزل خالد بن الوليد أثناء انتصاره وقال : ما عزلناه لطعن في دينه ولا في خلقه .

---

(٢٧) صحيح الجامع الصغير ٣٥٦٩ .

رابعاً : صلاحية الشريعة لعصرنا :

الأمر الرابع في شبهات العلمانية حول تطبيق الشريعة الإسلامية يقولون : كيف تكون صالحة لكل زمان ومكان ونصوصها منذ أكثر من أربعة عشر قرناً من الزمان . قبل أن أجيب عن ذلك بإيجاز اقرأ لكم توصية مؤتمر القانون الدولي المقارن المنعقد في لاهاي بهولندا خلال أغسطس ١٩٣٧ وهؤلاء ليسوا كما تعلمون من المسلمين .

ولم يكن المسلمون آنذاك في حالة من القوة حتى يغازلهم هؤلاء بهذه القرارات ، فمن قراراته وتوصياته[٢٨] .

(أ) أن الشريعة الإسلامية تعتبر حية وصالحة للتطور .

(ب) أن الشريعة الإسلامية تعد مصدر التشريع العام للناس جميعاً .

(جـ) وأن التشريع الإسلامي قائم بذاته وليس مستمداً من غيره . حيث يزعم بعض المستشرقين أنه أخذ من القانون الروماني مع وجود فوارق رئيسية لو تكلمنا عنها بين القانون الروماني والشريعة لأخذنا ساعات من المناظرة ، يكفي أن القانون الروماني يعتبر المرأة ضمن المجانين وما ساد أوروبا اليوم عن المرأة إنما لأن القانون الفرنسي قد أخذ عن القانون الروماني نظرته إلى المرأة في نقص أهليتها وهذا قدأشير إليه في نهاية المحاضرة .

(د) والمجمع الدولي للحقوق المنعقد في كلية الحقوق في باريس ١٩٥١ قرر أيضاً أن مبادئ الفقه الإسلامي لها قيمة خصوصية تشريعية لا يجاري فيها . وأن اختلاف المذاهب الفكرية ينطوي على ثروة من المفاهيم والأصول الحقوقية هي مناط الإعجاز وبها يتمكن الفقه الإسلامي أن يستوعب جميع مطالب الحياة والتوفيق بينها[٢٩] .

---

(٢٨) العلمانية للشيخ مهدي شمس الدين ص ١٠٣ . بيروت ـــ المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر . ومقارنات بين الشريعة والقوانين للمستشار علي منصور ، ص ٦٧ .

(٢٩) مقارنات بين الشريعة الإسلامية والقوانين الوضعية للمستشار علي منصور ص ٦٧ـــ٦٩ .

شهد شاهد من أهلها :

فما سبب هذه القرارات ؟ لماذا شهد فقهاء القانون بما يكذب دعاة العلمانية وما يروجونه من شبهات حول التشريع الإسلامي .

فالإسلام يفرق بين شيئين : الأمور التي لا تتغير بتغير الزمان والمكان ـــ كالحرام والحلال ، وقواعد العدل ، فوضع لها قواعد عامة ، أما ما يتغير بتغير المكان والزمان فترك للناس تفصيل ذلك طبقاً لتجاربهم أو لتجارب غيرهم .

لأن النبي ﷺ يقول : « الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أولى للناس بها »[٣٠] .

كما وضع مبدأ الشورىٰ وترك للناس أن يطبقوا هذا المبدأ بصورة مختلفة في شتى بقاع العالم ولم يلزمهم بوسيلة محددة من وسائل الشورىٰ . لأن هذا الأمر أي الوسيلة تتغير بتغير الزمان والمكان (فالمجتمعات البدائية غير المتحضرة) والمثقفين غير الأميين وهكذا .. وتعلمون أن هناك اختلافات بين الدول والأنظمة والمجتمعات في نظم الشورىٰ ، النظم المباشرة وغير المباشرة وما إلى ذلك .

فالإسلام وضع القاعدة الرئيسية وترك للناس وسيلة تنفيذها ، وغير ذلك وبالتالي كل أمر ألزم الإسلام الناس به إنما هو لا يتغير بتغير الزمان والمكان وهذا معنى شمول الشريعة لأنها تركت الأمور الأخرى للاجتهاد .

خامساً : حقوق غير المسلمين :

يتباكى بعض العرب على حقوق غير المسلمين وهم يعلمون أن بعض المستشرقين أنفسهم أشادوا بما جاء في الإسلام عن غير المسلمين ، فهل يخشى هؤلاء على حرية الإلحاد في الله تبارك وتعالى فيخافون أن يحرم هؤلاء الحرية في الإلحاد .

أضرب لكم مثلاً واحداً ، أبو بكر في عهد النبي ﷺ ، وكما تعلمون كان من

---

(٣٠) رواه الترمذي باب العلم

معاوني النبي ـــ أي كان أحد وزرائه ـــ جاء إلى يهودي اسمه فنحاس وعرض عليه الإسلام فقال له اليهودي : إن الله يحتاجنا ونحن لا نحتاجه والله فقير إلينا ونحن لا نفتقر إليه ، وأن الله يطلب منا أن نقرضه وهو لا يقرضنا كما يقول صاحبك ـــ يعني النبي ﷺ ـــ وهذا تفسير كاذب لقول الله ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾[٣١] فنازعه أبو بكر وتشاجر معه ثم رفع الأمر إلى النبي ﷺ فجاء اليهودي ، فأنكر فنزل جبريل بالوحي من السماء بقول الله تبارك وتعالى ﴿ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾[٣١] .

ولكن النبي ﷺ ـــ رغم ثبوت هذا على اليهودي ـــ لم يفعل له شيئاً ، لأن الله لا يُكره الناس على عقائد الإسلام ، وأيضاً لا يحاسب الناس على أفكارهم وأقوالهم ما لم يتحول هذا إلى عمل مضاد للمجتمع أو لأخلاق المجتمع فلا عقوبة إلا لحماية المجتمع وقيمه الإسلامية .

شبهة عقوبة المرتد :

قد يقول قائل : إذن ما معنى عقوبة المرتد في الإسلام وهي القتل في قول النبي ﷺ : « من بدَّل دينه فاقتلوه »[٣٢] ، وهل يتنافى هذا مع الحرية ؟ أريد أن أسألكم جميعاً ، لو أن أحد الأفراد ممن وفدوا إلى الكويت أراد أن يحصل على الجنسية الكويتية ولكن قانون الكويت ينص على أمور معينة فإذا فعلها يعاقب حيث يكون قد ارتكب جريمة الخيانة ـــ إذا والى دولة أخرى أو أعطى الولاء لدولة أجنبية فأضر بالنظام السياسي ، أو سعى إلى شيء من هذا ـــ هل هذا الشخص بعد أن حصل على الجنسية يأتي ويقول : لا أقبل هذا القانون ، وهذا يتعارض مع الحرية ؟ إنه يوم أن قَبِلَ هذه الجنسية يعلم أن هذا البلد له قانون ومقومات وهذه هي مقوماتها وهذا هو قانونها . والذي يدخل الإسلام لا يدخله كرهاً أبداً ، والآيات صريحة والتطبيق العملي

---

(٣١) آل عمران ١٨١ والبقرة ٢٤٥ .

(٣٢) رواه البخاري ، وأحمد . صحيح الجامع الصغير ٦٠٠١ .

صريح ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ ﴾[33] ، فقد نزلت لأن أحد الصحابة له ابنان وكانا معه على النصرانية وتركهما الأب ثم أكره ولديه على الإسلام ، فنزل القرآن : ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ ﴾ .

والخيانة أن يدخل الإسلام مختاراً ثم يخرج منه فهذه حيلة فعلها اليهود وبعض المشركين في عهد النبي ﷺ فيما ورد في القرآن الكريم قالوا : ﴿ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجۡهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكۡفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴾[34] فيؤمنون بالإسلام ثم بعد ذلك يقولون هذا الإسلام وجدنا أنه لا يصلح أو يعملون ضده أو يتجسسون على قومه عندئذ فهذه العقوبة إنما جاءت لهذا السبب ولا علاقة لها فيما يقال عن الحرية أو غيره .

ما هي حجة غير المسلمين :

إن التباكي على حقوق غير المسلمين ليس له محل لسببين رئيسيين :

السبب الأول أن الأناجيل ليس فيها أي حكم يتعلق بالمعاملات ولا بالتشريعات فكل نصراني في بلد ما يتبع قانون هذا البلد ، بل في المواريث أي الأحوال الشخصية التي تعد في جميع قوانين العالم من العبادات والشخص يتبع فيها ديانته التي ينتمي إليها ولا يخضع لقانون البلد ، هذه الأحوال الشخصية عند النصارىٰ فيما يتعلق بالميراث ليس لها أي نص في الإنجيل ولهذا هم يتبعون نظام المواريث في أي بلد يعيشون فيها فإذن إذا جاءت بلد فيها أغلبية مسلمة وشرعت في غير الأحوال الشخصية كما هو الحال في التشريعات المدنية والجنائية التي هي في كل بلاد العالم الحكم فيها للأغلبية **وفيها** مبدأ اقليمية القوانين ، هل يأتي هؤلاء ويقولون لا نريد أن يحكمنا قانون آخر وشيء آخرلأ ؟ ــ طيب نعم ــ ما هو هذا الشيء الآخر ؟

إنه ليس في دينهم أي حكم آخر وبالتالي لم نخالف أمراً وارداً في دينهم . فما هذه

---

(٣٣) سورة البقرة / ٢٥٦ .

(٣٤) آل عمران الآية رقم ٧٢ .

الضجة ولم نخالف أمراً وارداً في الإنجيل ، فهذه قضية وراءها جهات أخرى ، بعض الناس أيضاً يفهمون الجزية خطأً وينظرون إلى قول الله ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾[٣٥] نظرة غير صحيحة .

الجزية نظام كان موجود قبل الإسلام ، إذا لم تقبل معك أحداً في الجيش للدفاع عن الأوطان فيفرض عليه ضريبة معينة ، فالإسلام وضع هذه الضريبة على هؤلاء وفي الحالات التي لم يدافع المسلمون عن غيرهم لأي سبب من الأسباب كما فعل سعد ابن أبي وقاص في بلاد الشام ردت إليهم الجزية . وإذا اشتركوا مع المسلمين لا تفرض عليهم جزية ، والآية الكريمة التي يفهمها بعض شباب المسلمين خطأً ﴿ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ﴾ ــ أي عن قدرة ــ فغير القادر لا جزية عليه . الكبير في السن ــ المرأة ــ الأطفال لا جزيـة عليهم . وقد كانت قيمتها ديناراً .

أما قول الله : ﴿ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾ فالصغار ــ في اللغة ــ يتضمن الرضا ، وفيه الإذعان للتشريع الإسلامي وبالتالي فرضاهم بالجزية فيه إصغار لهم بالتزام القانون الإسلامي ، فهم مخيرون في قبولها ، ولا أقول هذا اليوم لأمر يتعلق بهذه الشبهات وإنما من شاء فليراجع كتاب الأم للإمام الشافعي .

الاقتصاد الإسلامي :

وما يتعلق بالمشكلة الاجتماعية والاقتصادية ، فمنذ أيام كتب علي صبري ــ وكان رئيس وزراء مصر ــ وأصبح زعيماً بالقوة العسكرية وليس بجدارة بين الناس ولا في علم ولا غيره يقول : ما معنى التشريع الإسلامي ، أنا لا أعرف شيء اسمه الاقتصاد في الإسلام .

قد يكون لا يعلم هذا لأنه إنما درس وتلقى أموراً أخرى ، إنما القضية الاقتصادية بإيجاز في أي بلد في العالم تتعلق بنظرة هذا المذهب للمال وللعمل ، فهل الإسلام جاء خالياً من تحديد نظرة معينة للمال والعمل .

---

(٣٥) التوبة الآية ٢٩ .

أنزل الله حكم الإسلام في المال قبل أن يوجد النظام الفردي والنظام الجماعي بقرون ، تعلمون أن العالم فيه النظام الفردي وتتبناه الدول الرأسمالية ويطلق حرية رأس المال ، والنظام الجماعي تتبناه روسيا وقبل أن يولد هذان النظامان القرآن الكريم وفق بين هذين الأمرين لأنهما نزعتان في الإنسان فجعل المال في الأصل هو لله والمالك من الناس ، هو حائز للمال وعليه أن يلتزم بنظام الله القائل ﴿ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾(٣٦) ولهذا في توزيع الأموال لم يوزع على الأغنياء الذين كان لهم الحق فيها وعلل ذلك بقول الله ﴿ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ﴾(٣٧) .

ووضع على المال وصاحب المال قيوداً تتعلق بالاحتكار وبغيره وتتعلق بطريقة استثمار المال وباكتناز المال ومنعه ثم وضع الزكاة وفوق الزكاة وضع قيوداً أخرى حتى أن ابن حزم الأندلسي وهو من أوروبا عندما دخل الإسلام قال : فرض على كل حاكم مسلم أن يوفر لكل فرد في الشعب مسكناً للصيف ومسكناً للشتاء ودابة يركبها وامرأة يتزوجها ، هذا كلام ابن حزم في (المحلى) من أين أخذه ؟ لولا أن يطول بنا الوقت آتي لكم بالنصوص التي استند إليها ابن حزم في هذا وهي من القرآن والسنة ولكنها معلومة لكم .

أيضاً النبي ﷺ يقول : « من كانت له أرض فليزرعها أو ليزرعها أخاه ولا يكريها (أي لا يؤجرها) أو يمنحها أخاه »(٣٨) ، هذا ليمنع الإقطاع واحتكار الأراضي أو إضرار المستأجر . لا أريد أن أطيل في هذا الآن فالوقت قد انتهى .

أما الذي طبقه بعض الناس كالنميري وغيره وهو البدء بالحدود قد يراد به شيء معوق للإسلام وقد يكون حسن النية ويجهل حقيقة الإسلام ، والإسلام لا شأن له بأخطاء الناس البتة ، إن النبي ﷺ طوال العصر المكي لم يفرض أي حدود ، وبعد استقرار الإسلام في المدينة وقيام حكم الإسلام بدأت الحدود بعد توفير ضمانات أخرى تتعلق بكفالة الإنسان في قوته ورزقه وعمله وحريته ، ولهذا عندما سرق بعض

---

(٣٦) الحديد آية ٧ .

(٣٧) الحشر آية٧ .

(٣٨) صحيح الجامع الصغير ٦٣٨٩ .

الناس من أحد الأغنياء في عهد عمر ، سألهم عن السبب قالوا : لا يكفينا الأجر ، فأحضر سيدهم وقال له : لو جاء هؤلاء سارقين لقطعت يدك أنت . في الحدود ، حراسة للنظام وهي الأمر النهائي ، ولا يبدأ بها أبداً بل إن النبي ﷺ كان يرد من أتاه طالباً إقامة الحد عليه ، لأنه جاء تائباً .

« ماعز » لما جاء وقال يا رسول الله إني زنيت فأقم عليَّ الحد ، أعرض عنه وقال ، لعلك قبلت لعلك فاخذت قالها عدة مرات ويعرض عنه وهو يصر بل عندما أحضروا سارقاً سأله النبي ﷺ هل سرقت ؟ وقال له قل لم أسرق وفي رواية « أخالك لم تسرق »[39] ، لأن الإسلام ليس مغرماً بجلد الناس ولا بقطع أيديهم ، إنما هذا الأمر عرف في الشريعة باسم الترغيب والترهيب .

فهل الحدود زواجر أم جوابر ؟.. هي للزجر وليست في ذاتها العلاج ويجب أن يسبقها أموراً أخرى لهذا فالله يقول : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡ ﴾[40] فإذا جاء إنسان وطبق خطأً لسبب ما ولا نريد أن نتناول أشخاص الناس فلا صلة للإسلام بهذا الخطأ . فمن بدأ بالحدود فلا صلة للإسلام به .

قضية المرأة :

أما قضية المرأة التي يثيرها بعض العلمانيين لا أريد أن أطيل فيها وإنما أذكر أمرين اثنين لانتهاء الوقت .

الأمر الأول : ما يتعلق بالطاعة : الإسلام نظام عام لا يشمل المرأة وحدها ، فكل مجتمع من المجتمعات يجب أن تكون له قيادة وإلا أصبحت فوضى فالطاعة نظام عام .

الإمام الغزالي يقول : (إن الطاعة ليست لذات الأمر نبياً كان أو أباً أو حاكماً أو زوجاً إنما هي طاعة لله الذي أمرنا بطاعتهم) ، فإذا تخطى الأمر النظام فلا طاعة له .

---

(٣٩) نيل الأوطار للشوكاني ج ٧ كتاب الحدود .

(٤٠) المائدة الآية ٣٤ .

وهذا تطبيق لقول النبي ﷺ : « إنما الطاعة في المعروف ــ لا طاعة في معصية »[٤١] .

يبقى الموضوع الثاني :

بإيجاز أختتم به المحاضرة ويتعلق بقول الله تبارك وتعالى : ﴿ وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِي ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ﴾[٤٢] الضرب هنا ليس كما يفهم العامة سلطة بيد الرجل وإنما له قواعد تتعلق بما عرف في الفقه الإسلامي بالعموم والخصوص .

فالضرب هنا خصصه النبي ﷺ حيث خوله الله تخصيص آيات القرآن وتبينها ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾[٤٣] فجاء في أمر الضرب وخصصه في حديث حجة الوداع بأمرين هما :

١ ــ أن يوطئن فرشكم من تكرهون .

٢ ــ أو يأتين بفاحشة مبينة ، والفاحشة هنا لا تعني الزنا وإنما كل مقدمات الفاحشة .

فإذا فعلت الزوجة هذا له أن يضربها أو يطلقها .

هل الإسلام عندما يفعل هذا يكون قد ظلم المرأة .. لا يقول بذلك أحد من المنصفين ، قد يأتي شخص ويظن أنني أجتهد من عندي أو هذا لمراعاة ظروف الناس ، اقرأوا إن شئتم قول الله تبارك وتعالى ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ ﴾[٤٤] .

والناس الأولى فرد واحد فليس المعنى كل العالم ، قالوا إن الناس قد جمعوا لكم بل هو

---

(٤١) رواه أحمد ، صحيح الجامع الصغير ٢٣٢٣ .

(٤٢) النساء آية ٣٤ .

(٤٣) النحل آية رقم ٤٤ .

(٤٤) سورة آل عمران آية / ١٧٣ .

نعيم بن مسعود . والناس الثانية هو أبو سفيان ، وفي قواعد اللغة أحكام تتعلق بالعموم والخصوص فيرجع إليها .

فإذا جاء شخص لمجرد أنه أطلق اللحية ولا يفهم هذه القواعد واتى بحكم ويقول هذا الإسلام فهذا يحجر عليه بمعرفة المحكمة الشرعية .

الإسلام له قواعد ومعالم فانتبهوا إليها .

وأكتفي بهذا ، وشكر الله لكم ، ولعل الأسئلة توضح ما لم أدركه .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

الفصل الثاني
محاضرة الدكتور فؤاد زكريا

- حواري مع الجماعات لا الإسلام
- بين عودة الإسلام والفرعونية
- التطبيق الإسلامي لا يحقق الأهداف
- ما ضمانات الحدود والتطبيق
- أسباب المعارضة للتيار الإسلامي



محاضرة الدكتور فؤاد زكريا

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة والزملاء والأصدقاء ، هذه هي السنة الثانية التي تتاح لي فيها فرصة الاشتراك في ندوة تحمل هذا العنوان ، والمرة الأولى كانت في القاهرة خلال الصيف الماضي ، وكان يشارك طرف آخر في الحوار الأستاذين محمد الغزالي ويوسف القرضاوي ، وكما حدث في المرة الأولى أجد اليوم أن النسبة الغالبية من الحاضرين هم من يمثلون الطرف الآخر الذي يفترض أنني أعارضه وهذا شيء لا يصعب على المرء أن يستنبهه ، ولذلك أريد أن ابدأ كلامي بداية مباشرة كتلك التي بدأت بها المرة السابقة نظراً لأن نوع الجمهور متقارب لحد كبير وغالبية الحاضرين يتبنون آراء في المسألة المطروحة مخالفة إلى حد كبير للآراء التي سيسمعونها مني ، وأنا — في تصوري الخاص — أن هذه الندوة فرصة لكي تستمع هذه الأعداد الكبيرة من الأخوة ومن الطلاب إلى وجهة النظر المخالفة وخصوصاً أن الاستماع إلى هذه أي وجهة النظر الأخرى نادراً ما يتاح له بتلك الصورة المباشرة وعلى أشخاص مما عرف أنهم يمثلون وجهة النظر المخالفة .

هذا فالذي يحدث في غالب الأحيان هو أن الشاب المنضم إلى تيار إسلامي معين أو إلى جماعة إسلامية معينة يقضي معظم وقته في الاستماع إلى من يمثلون وجهة نظره هو **وأظن** أن من المفيد له ومما يساعده أن يكون رأيه الخاص بطريقة ناضجة ويساعده أيضاً على أن يفهم الأمور من وجهة النظر الأخرى أن يستمع من آن لآخر إلى محاضر مثلي أو أن يقرأ في كتاب لشخص مثلي وأنا لا أدعي على الإطلاق أنني سأغير شيئاً من تفكير مثل هذا الشاب . كل ما أريده هو أن أساعده على أن يكون لنفسه رأيه الخاص من خلال المقارنة بين وجهات نظر متباينة .

أرجو أن تأخذوا هذه الندوة بهذا المعنى فقط ولذلك أتمنى أن تعتبروا أنها فرصة للاستماع إلى رأي مخالف حتى لو كان هذا الرأي المخالف يضايق بعض الناس، فأتعشم أن يكون لدى هؤلاء من الصبر وسعة الصدر ما يسمح لهم بأن يستمعوا إلى النهاية في هدوء ورغبة في التعلم.

الندوة موضوعها **الإسلام والعلمانية**:

في الواقع أنا شخصياً لا أعتبر أن الإسلام في هذه الندوة طرف والعلمانية طرف آخر، فليس الإسلام موضوعاً للنقاش هنا وليس موضوعاً للدفاع وإنما الذي يثير هذه المشكلة بأكملها في الأيام التي نعيشها هو أنه توجد جماعات إسلامية تنادي بالتطبيق الشامل للإسلام على كافة جوانب الحياة، وهذه جماعات تزيد وتنتشر ويزداد عددها وتكون تلك الظاهرة المشهورة التي يطلق عليها اسم الصحوة الإسلامية، فالنقاش هو في واقع الأمر نقاش بين تلك الدعوة إلى شمول الإسلام وبين رأي آخر يعارض هذه الدعوة. **هذا هو الموضوع الحقيقي للنقاش وليس الكلام عن الإسلام على إطلاقه** أو عن موقف العلمانية من **الإسلام** حيث هو الإسلام. أردت أن يكون هذا الأمر واضحاً منذ البداية لأني أعلم جيداً أن **كثيراً** من المسلمين لا يخاصمون العلمانية ولا يعتبرونها طرفاً مضاداً، هذا شيء أعلمه عن يقين.

أعلم أن الطرف الآخر سواء أكان الطرف الزميل الكريم المتحدث أو الجمهور الكريم المستمع ليسوا هم الإسلام وإنما هم ممثلون لاجتهاد معين في الإسلام أو لوجهة نظر معينة في الإسلام ولهذا أرجو أن يكون واضحاً لدى الجميع أن موضوع الندوة ليس هو وضع الإسلام نفسه في كفة **ميزان** أمام العلمانية[1].

من هنا استنتج شيئاً هاماً وهو أن كل الكلام الذي نسمعه سواء في هذه الندوة أو غيرها عن الحضارة الإسلامية عن أمجاد الإسلام، هذا في واقع الأمر كلام نحن لا

---

(١) المناظر يخالف بذلك أقواله في كتبه ومنها (الحقيقة والوهم) حيث يذكر أن فترة تطبيق الشريعة في أكثرها سوء تطبيق وينكر صلاحية أحكام الشريعة للتطبيق ويدعو إلى تحكيم العقل والعلم. ص ١٠ــ١٤.

نحتاج إلى شهادة فيه لأننا لسنا مختلفين عليه. نحن لا نحتاج إلى أن نسمع جيداً أو امتداحاً لما كان يشهده الإسلام في عصوره الزاهية، ولا أحد منا يشكك في ذلك ونحن لا ندعي على الاطلاق أننا نريد أن نمحوا صفحة التاريخ الإسلامي ونقول أنها لم تكن صفحة مجيدة لا يوجد أحد يدعي هذا بالمرة.

ومن هنا فأنا أعتبر **أن** تلك الحضارة وهذا التاريخ لا يحتاج إلى شهادة أحد في الواقع لأننا جميعاً معترفون به.

لكن هناك قضية أخرى من الممكن جداً أن تقترن بعظمة هذه الفترة التاريخية وتؤكد أمجادها وتتغنى بها ولكن لا تكون من أنصار إعادتها مرة أخرى في العصر الحاضر وليس هناك في **رأيي** أي تعارض بين الاثنين، هذا موقف وهذا موقف.

بعبارة أخرى أولئك الذين يقولون **إننا** لا نستطيع أن نكرر مرة أخرى تجربة حدثت منذ ١٤ قرناً لا يقولون هذا لأنهم يريدون محو التاريخ الإسلامي أو يريدون التنكر للحضارة الإسلامية أبداً لأن المسألتين مختلفتين، مجد الحضارة الإسلامية هذا جانب، ومحاولة استعادة هذا التاريخ السابق أو ما كان يحدث به في عصرنا الحاضر هذه مسألة أخرى مختلفة كل الاختلاف ولهذا ممكن جداً أن يجمع الإنسان بين الأمرين.

بمعنى أن يكون ممن يعترفون بأنه كانت هناك حضارة إسلامية زاهية لها إنجازات عظيمة علمها العالم كله أشياء كثيرة لولاها لم يكن ليتعلمها، ولكن نفس هذا الشخص يمكن أن يكون في الوقت ذاته لا يستطيع أن يتخلص مأزقنا في الوقت الحاضر لاستعادة تلك الفترة السابقة أو أن الخلاص هو أن نكرر ما يحدث في عالمنا الإسلامي منذ ١٤ قرن.

وأمثلة كثيرة على ذلك، فمثلاً أنا والأستاذ البهنساوي من مواطني مصر، ونحن الاثنان نعلم ودرسناه في المدارس كم كانت الحضارة الفرعونية مجيدة ونعلم أن الفراعنة سادوا العالم في وقت من الأوقات وكانت تفضلهم عن أرجاء كثيرة من العالم بفوارق حضارية وفكرية وعلمية هائلة، كان الفراعنة يغزون العالم كله ويتفوقون عليه تفوقاً ساحقاً، في الوقت الذي كان فيه الأوروبيون أشبه بالقرود.

ومع ذلك فلو جاء أحد اليوم وقال : ما دامت الحضارة الفرعونية قد سادت العالم في وقتها فإن الحل هو أن نعود إلى ما كان عليه الفراعنة ، سنضحك عليه[٢] ، وسنقول له : لا ، لأن التاريخ تغير ولأن الأوضاع السابقة يستحيل أن تستعاد ، بعد أن مضى كل هذا الزمن ، هذا مجرد مثل ، وهناك أمثلة كثيرة اليونانيين من الممكن إنهم يذكروا العالم أيضاً بأمجادهم .

والمهم أنني أردت أن أوضح منذ البداية أن الاعتراف بالأمجاد الإسلامية وبفضل الإسلام على العالم لا يتعارض على الاطلاق مع القول بأننا لن نجد الحل الآن في استعادة تلك التجربة التي كانت تسود في تلك الأيام المجيدة .

المقصود بالعلمانية :

والعلمانية في الحقيقة أصبحت سيئة السمعة الآن ، وهي كلمة تعيسة الحظ تطلق على أناس تعساء الحظ أيضاً وأن هذه الكلمة في الحقيقة لم يخترها أصحابها ، معظم من يسمون اليوم بالعلمانيين لم يختاروا هذا اللقب وإنما الذي **إختاروه** لهم خصومهم وأنا أتصور أن الذي يطلق عليهم اسم العلمانيين الآن ما هم إلا أناس يرغبون في أن ما يتعلق بالصلة بين الدين والحياة لا يجب أن يطرأ عليها ذلك التغيير الذي تنادي به جماعات إسلامية معاصرة وخاصة منذ السبعينات هم أشخاص يعارضون هذا الاتجاه ، ونحن لا نستطيع أن ننكر أن النسبة الغالبة من البلاد العربية يمكن أن يقال عنها أنها بلاد علمانية ، وعلمانيتها لا تعني أنها تستبعد الإسلام تماماً ولكن يعني أنها لا تقول أنها حكومات إسلامية ، للإسلام مكان هام فيها ومكان محترم ولكن تلك الحكومات لا تقول أنها حكومات إسلامية ، فالذين يقولون أن هذا وضع لا يمكن إصلاحه بإقامة الحكومة الإسلامية هم الذين يطلق عليهم خصومهم اسم العلمانيين وهو اسم أعتقد أن معظم العلمانيين لم يختاروه لأنفسهم ومن هنا فإن اسم **العلمانية** يجب أن ندرك أنه اسم سلبي بمعنى أنه يطلق على أناس يرفضون

---

(٢) الحضارة الفرعونية ليست لها تشريعات للحلال والحرام حتى يطالب أحد بها ، والقرآن والسنة الذي نحتكم إليهما لا يوجبان أخذ تجربة العصور الإسلامية ، بل المطلوب الالتزام بشيء ثابت لا يتغير مع الزمان ألا وهو الالتزام بالحلال والحرام .

استحداث تجربة معينة.

من جهة أخرى العلمانية المعاصرة والتي نعيشها اليوم هي علمانية دفاعية وليست هجومية بمعنى أنها لا تريد أن تقيم مجتمع معين له سمات كيت وكيت .. الخ.

وهي في هذا تختلف عن التيار الإسلامي، التيار الإسلامي له هدف يريد إقامة مجتمع صفاته كذا وكذا ...، لكن العلمانية تصده فقط هي علمانية دفاعية، وفي هذا يجب أن نفرق بكل وضوح وهي للأسف تفرقة أو تمييز يفوت على الكثيرين.

يجب أن نفرق بين علمانية أوائل القرن العشرين وبين العلمانية المعاصرة فهي علمانية دفاعية لصد التيار الآخر، وطبعاً في خلال كلمتي، وسوف نتناقش ونعرف الأسباب التي تدعوها إلى صد التيار الآخر وتقف موقفاً مضاداً ضد هذا التيار هذا أيضاً إيضاح آخر أردت أن أبينه منذ البداية، حيث يتضح لنا أن العلمانية في عصرنا الحاضر لها سماتها المميزة ولا يخلط بينها وبين أنواع أخرى من العلمانية.

القضية المطروحة للنقاش

القضية التي نناقشها ليست على الإطلاق ما إذا كان الأمر أن نأخذه بالإسلام أو أن نرفضه، للأسف الكثيرون مصورون المسألة بهذا التصوير، المسألة ليست أن نقبل الإسلام أو نرفضه[٣]، المسألة كما قلت لكم، هي أن هناك دعوة تشتد وتنتشر وتجتذب لها أعداد أكبر في كل عام، هذه الدعوة ظهرت بشكل واضح في العقد الماضي في السبعينات وما زالت الظروف مهيأة لازدهارها وزيادة انتشارها حتى اليوم، هذه الدعوة تدعو إلى التطبيق الشامل للنظام الإسلامي مع تفاوتات، طبعاً أنا اعترف بأن التيارات المختلفة لها وجهات نظر متباينة وما سمعناه من الأخ الكريم

---

(٣) المحاضر يرفض الأخذ بالإسلام في أمور الحلال والحرام، ففي كتابه « الحقيقة والوهم في الحركة الإسلامية المعاصرة » يهاجم الجماعات الإسلامية لأنهم هاجموا السادات لما ذكره عطا طايل وهو أن الديمقراطية التي يدعيها الشعب بأي قرار يتفق عليه أغلبية النواب بالبرلمان ولو خالف القرآن الكريم، وضرب مثلاً بالديمقراطية في بريطانيا حيث وافق مجلس اللوردات على إباحة اللواط وأصبح هذا الشذوذ مشروعاً في بريطانيا، كما وافق مجلس السويد على تعدد الأزواج للزوجة الواحدة، ووافق مجلس الشعب المصري على إباحة الخمور. ص ٨٥ــ٩١.

الأستاذ/ سالم البهنساوي اليوم هو أحد هذه الاتجاهات وأنا واثق أن هناك آخرين لهم اتجاهات يختلفون فيها معه كثيراً أو قليلاً ، ولكن المهم في الأمر هو أن السؤال الذي يشكل في نظري القضية الأساسية هو :

هل هذا التطبيق الذي تدعو إليه تلك التيارات الإسلامية المعاصرة لنظام إسلامي شامل ، هل سيحقق أهدافه أم لا ؟ هذه هي القضية الكبرى في رأيي .

أي حل مشاكلنا إنما يكون بتطبيق الإسلام في كافة مناحي حياتنا فالناس الذين من أمثالنا يتساءلون هل هذه الدعوة قادرة على أن تحقق الأهداف التي ظهرت من أجلها ، ما الذي جعل شباباً مخلصاً ــ وأنا أقول بصدق وليس تملقاً ولا نفاقاً ــ أنا أقول أن شباب الحركة الإسلامية شباب مخلص يريد أن يصلح أوضاعاً معينةوأختلف معه في اتجاهه اختلافاً أساسياً . لماذا ظهرت هذه الدعوة إلى التطبيق الشامل للإسلام؟ ظهرت لكي تبحث عن نهج أو عن طريق أسمى من طريق البشر ، المطلوب هو أننا نبحث على طريق فيه ارتفاع على ما ينتاب البشر من ضعف وتقلب وتغير لأن الإنسان كائن ضعيف ، أي تشريع يصدر أو أي تنظيم لحياته يصدر عن أي إنسان لا بد أن يكون ضعيفاً مثله . وعلى ذلك فإن المطلوب هو أن يبحث عن طريق أسمى يأتي من أعلى غير طريق الإنسان الفاني ، إذا استطعنا هذا سنكون قد وضعنا أول أرجلنا في طريق الإصلاح .

المشكلة في نظري هي أننا عندما نبحث عن أصول إلهية ننظم بها حياتنا في الميادين المختلفة نتصور أن مجرد تطبيق هذه الأصول أو المصادر الإلهية معناه أننا تخلصنا من ضعف البشر ، وهنا أنا أقف بكل شدة وأقول آسف هذا لم يحدث لأننا لن نستطيع أن نستغني عن الإنسان مهما كانت الظروف[٤] ، للأسف لو كانت الرسالة الإلهية الآن تأتي إلينا مباشرة أو عن طريق رسول يأتي إلينا ويهدينا الطريق لانحلت المشكلة وانتهت ، لكننا نعلم أن الرسالات انتهت وبالتالي أن أي محاولة لتطبيق تلك الشريعة الإلهية سيقوم بها بشر ، وعندما يقوم بها بشر يكون معنى ذلك

(٤) الإسلام يستغني عن البشر في التشريعات الواردة في القرآن والسنة فقط وهذه لا تتغير مع الزمن مثل قواعد العدالة في القوانين فلا تتغير .

أن ضعف الإنسان وتغير الإنسان الذي حاولنا أن نتخلص منه في البداية قد عاد إلينا مرة أخرى ، صحيح ستقولون أن البشر دول حيطبقوا نصوص إلهية ، لكن أظن أنكم أذكى من أن تقعوا في خطأالإعتقاد بأن مجرد تطبيق البشر للنصوص الإلهية أنهم نسوا أنفسهم أنهم كبشر ، ونسوا مصالحهم كبشر ، وطبقوا كلهم جميعاً بطريقة واحدة متفق عليها ، دليل على هذا بسيط جداً ، التاريخ الإسلامي — كل التاريخ الإسلامي — شوفوا مدى الاختلافات ، شوفوا مدى التباين في التطبيقات ، وكل واحد منهم كان يطبق بطريقته الخاصة ؛ ومن أجل مصالحه الخاصة ، كان يقسم أنه يتبع الشريعة الإلهية مباشرة ، فالمسألة هنا ليست في أن الشريعة صح أو غلط ، ليست في أن نقبلها أو نرفضها أبداً ، فالمسألة هي أن هناك دعوة إلى التطبيق وهذه الدعوة لها هدف ، بتقول إحنا عايزين نطبق أن القانون الوضعي بشري وفاني وضعيف وتعبان وجاي من أوروبا والتشريع الإلهي هو الذي سيحل الإشكال كله(٥) .

طيب ، هل التشريع الإلهي سيطبق نفسه بنفسه؟ لا ، عندنا ناس هم اللي حيطبقوه وفي كل التجارب وكل المحاولات الأخ سالم البهنساوي تحدث عن تجربة السودان وأنا سعيد لأنه تبرأ من هذه التجربة وليس كل زملائه تبرأوا منها في الحقيقة ، مش كلهم ، لأن فيهم من أيدها عندما كانت موجودة وقائمة ، ولكن المهم أن الآن هو وضع التبرأ هذه التجربة لأن التجربة السودانية ليست هي الوحيدة فيه تجارب أخرى كثيرة ، هل تستطيعون أن تدلوني على تجربة واحدة من التجارب المعاصرةأو القريبة العهد ، التي حاولت تطبيق الشريعة الإسلامية تجرد فيها البشر من أهوائهم ولم تظهر فيها المصالح البشرية ، أنا سأسكت قليلاً حتى يرد عليَّ أحد من الحاضرين ويقول لي تجربة كذا(٦) .

---

(٥) لا يخفى على القارئ أن القانون البشري المرفوض في الإسلام هو الذي يحل الفواحش والخمر وغير ذلك من المحرمات في الإسلام والتي لا يختلف العلمانيون أنها تضر بالناس.

(٦) إن هذه التجارب حكومية مشبوهة ، والحركة الإسلامية لا يسمح لها كما أوضح الدكتور عصمت سيف الدولة في كتابه الإسلام والعروبة ، وبالتالي لا وجود للتجارب التي يسأل عنها المناظر .

أخطاء التجارب

نجد أن جميع التجارب كان فيها العنصر البشري هو الذي يطغى ، وكان كل حاكم أو كل ذي مصلحة يفسر النصوص الإلهية بالطريقة التي تساعده على تحقيق مصالحة فالمسألة هي أننا ما أردنا أن نتجنبه في البداية قد عاد وارتد إلينا في النهاية .

بعض الناس يقولوا طيب ، التطبيق الإسلامي تجربة جديدة لقد جربنا حكم العلمانيين وفشل ، وجربنا الليبراليين والانتخابات وفشلت ، وجربنا الاشتراكية وفشلت معانا ، وجربنا الرأسمالية وفشلت ، فلماذا لا نجرب الإسلام ؟

هذا أيضاً منطق معقول وفي وراه فكرة ، لكن المشكلة هي أن ظروفنا في العالم العربي أحنا لسنا حقول تجارب ، احنا لسنا شعوب العالم العربي ليست فئران في معمل تعمل عليها تجارب ، المسألة هي أننا نريد ضمانات ، نريد أن نتأكد من أن التجربة القادمة الموعودة والتي تدعونا إليها جميعاً سنتخلص من أخطاء تلك التجارب السابقة ، والمعاصرة التي حولنا والتي تحول بعضها إلى فضائح مدوية ، نريد الضمان يقال لنا جربوا الإسلام طبقوه عظيم .

إن العلمانيين لو جاءهم الإسلاميين وقالوا إننا نريد أن نطبق تجربة إسلامية جديدة فيها ضمانات كذا .. وكذا .. وكذا .. تتضمن لنا ألا تتحقق أخطاء التجارب السابقة(٧) وكانت هذه الضمانات محدودة وواضحة ومقنعة فلن تجد علمانياً واحداً يقولا لا .

المشكلة هي أن الأمور لا تزال عائمة وغائمة يقال لنا زي ما بيحصل في الانتخابات المصرية في الأيام اللي فاتت شعارات في كل مكان ، الإسلام هو الحل ،

---

(٧) المناظر لم يعترض على التجارب البشرية كلها ولم يقل في أي منها أننا لسنا حقل تجارب ، بينما يناهض المطالبة بتطبيق الشريعة بدعوى أنها تجربة ثبت أخطاءها وهو من قبل يؤكد أنه لا يوجد أسمى من التطبيق في العصور الإسلامية الأولى ، فلماذا لا يعتبر أنها هي التجربة الصحيحة ، لأن تجربة النميري أو غيره من الحكام المعاصرين لا تنسب إلى الإسلام لان روادها غير إسلاميين ولم يلتزموا بالإسلام .

طيب يا أخي أضمن منين أن الإسلام هو الحل؟ وبعدين يطلع علينا واحد من هنا أو من هناك له مصالح ويأخذ هذا الشعار ويستغله لنفسه أضمن منين أن بعض الأقطاب، أهو حصل خلاف في الجرايد بين فهمي هويدي وصلاح أبو إسماعيل، الاثنين من التيار الإسلامي وفهمي هويدي كما قال لصلاح أبو إسماعيل: إنت بتاخذ دولارات. أضمن منين أن لا يتكرر هذا على صفحات الجرايد الكويتية انتشرت هنا وعلى صفحات الجرايد المصرية.

ما الذي يضمن لي إذن المسألة؟ نحن لا نقول إلا الآتي: المطلوب من كل شاب مخلص يريد إصلاح مجتمعه عن طريق تطبيق تجربة إسلامية جديدة أن يطالب هو نفسه زعماؤه ورؤساؤه وأمراؤه بضمانات بأن الذي حصل عند النميري لن يحصل تاني وأن يكون ضمان واضح ومقنع مش كلام عايم مش عموميات، هذا هو المطلوب. لماذا؟ لأن مجتمعاتنا كما تعلمون تخلفت كثيراً أو تعثرت كثيراً والمسألة لا تحتمل إن احنا ندخل تاني في تجارب قد تخطىء وقد تصيب، ولو أخطأت سيكون ثمنها فادحاً لأن الخطأ زي ما أنتم شفتم واحد زي النميري مثلاً كما كتبت الجرايد اليومية نفسها قطع من الأيدي أكثر من قطع في التاريخ الإسلامي بأكمله وعملوا متحف للأيدي المقطوعة هناك في السودان، طيب أنا لا أقول أن هذه هي التجربة الوحيدة ولا آخذ كل التيارات الإسلامية بذنب النميري أبداً بس كل ما في الأمر أننا نريد عندما ندعو حركة إسلامية معينة إلى تطبيق الشريعة الإسلامية تطبيق شامل للإسلام في حياتنا أن مع هذه الدعوة تقول أي نحن سنأتي بجديد معين هو كذا ... وكذا ... وهذا الجديد يحققه عدم تكرار تلك **الأخطاء** اللي حصلت سواء في السودان أو في غيرها من البلاد الكثيرة طيب تعلمون أن مثل هذه التجارب حصلت فيها بطريقة لم تكن ناجحة(٨).

---

(٨) المناظر لا ينكر أن التاريخ **الإسلامي** ليست فيه تجارب خاطئة كتجربة النميري، ويعلم أن النميري وكل من بدأ بالعقوبات الإسلامية ويترك الإسلام في تشريعاته الأخلاقية والاجتماعية والاقتصادية، إنما هم حلفاء لأمريكا وتاريخهم يشهد بعدم انتمائهم للحركة الإسلامية، فلماذا ينسب عملهم إلى التطبيق الإسلامي. وأما متحف الأيدي المقطوعة فهو ما كتبته الصحافة العلمانية عن تجربة النميري وهذا غير ثابت من أي مصدر غير أقوال بعض الشيوعيين الحلفاء السابقين للنميري وخصومه **عندما طبق الإسلام**.

أريد أن أقول إن تطبيق الشريعة في الواقع تصادفه مشكلتان رئيسيتان في هنا نوع من المأزق ، واسمحوا لي أن أعرض عليكم هذا المأزق بوضوح :

ضمانات الحدود الإسلامية :

تفضل الأخ / سالم البهنساوي الآن فتحدث عن أن الحدود لا تطبق مباشرة وأنه في صدر الإسلام طبقت اجراءات معينة بعدها وليس قبلها كان من الممكن أن تطبق الحدود وأنه هذه الإجراءات هي كفالة حد أدنى من العدالة حتى لا أقطع يد إنسان سرق رغيفاً لأنه جائع هذا كلام جميل وكلنا نؤيده ، ولكن هنا مأزق معين ، هذا المأزق هو أنه لو طبقنا هذه الحدود على الفور كما فعل النميري سنرتكب مظالم فادحة وسنقطع أيدي الفقراء الذين سرقوا ليأكلوا ونترك لصوص الدولة الكبار بمأمن من العقاب ووجد النميري من رجال الدين الرسميين من يصدر له فتوى بأن سرقة مال الدولة لا يجوز عليه قطع اليد ، مال الأفراد فقط هو الذي ستقطع اليد علشانه .

نريد أن نقول مرة أخرى : ما هو المأزق ؟ المأزق هو أن زي ما قلت لكم لو طبقنا على الفور بدون توفر هذا الحد الأدنى من العدل الاجتماعي سنكون ظالمين بل سنرتكب جرائم لكن نيجي للطرف الآخر لو طبقنا بعد أن يتوفر الحد الأدنى من العدالة المطلوبة ، طيب خلونا نمسك المجتمعات العربية المعاصرة كم تحتاج من الوقت في مجتمعاتنا العربية المعاصرة لكي يوفر هذا الحد الأدنى من العدالة وأرجو أن لا تنظروا إلى بلد مثل الكويت لأن الكويت لها ظرف استثنائي بلد صغير وثروة كبيرة ولا تنظروا إلى الخليج عموماً لأن ظروفه مثل ظروف الكويت ولكن انظروا إلى البلاد العربية ذات الكثافة الكبيرة في السكان وموارد قليلة (كمصر والسودان والمغرب العربي كله) في هذه البلاد كم سنحتاج من الوقت لكي نوفر الحد الأدنى البسيط أي لقمة العيش لكل إنسان حتى نكون عادلين إذا طبقنا عليه حد السرقة كم سنة تفتكروا حنحتاج ؟ أنا أتصور أن في البلاد العربية ذات الكثافة السكانية الأمور لا يبدو أن في الأفق أن هذا الحد الأدنى سيتوفر ولاحظوا أننا لن نطبق حد السرقة إلا بعد أن يكون الحد

الأدنى قد توفر[٩] ، استثنوا بقى خلينا قاعدين ننتظر حتى يأتي الحد الأدنى وإلا لو طبقنا على الفور لكنا ظالمين ، فهذه المشكلة فالأمور تستفحل والسكان يزيدون والموارد تقل والظلم الاجتماعي أكبر وحاجة الناس إلى سد رمقهم بلقمة خبز أو بقطعة من الملبس تزداد يوماً بعد يوم ، فما العمل؟ التطبيق الفوري وراه مشكلة والتطبيق الآجل وراه مشكلة أيضاً .

الاجتهاد في التطبيق ونطاقه .

يوجد مأزق آخر في عملية التطبيق ، هل نطبق النصوص حرفياً أو نتصرف فيها ونجتهد ، لو طبقنا حرفياً بدون اجتهاد سنتجاهل ظروف العصر وسنتجاهل أن الإسلام نفسه يحضنا على التفكير وعلى أن نتدبر شؤون حياتنا وأنا سعيد بأن الأخ سالم البهنساوي في بداية حديثه قال كلاماً اعتقد معه أنه أوشك أن يكون علمانياً (ضحك وهرج ..) ..

ما تأكد أن الإسلام ترك ما يتعلق بشؤون البشر للبشر لأن الحقيقة لو أخذت هذا المبدأ وعممته فسأقول أن السياسة من شئون البشر بنص اتركوا السياسة للبشر ولا داعي لحكومة إسلامية ..[١٠] .

المهم في الأمر هو أن التطبيق الحرفي سيكون فيه جمود وسيعجز عن ملاحقة تلك التطورات الهائلة والسريعة والمذهلة التي تحيط بنا في العالم الذي يتغير من حولنا ويزدهر من ساعة إلى ساعة ومن يوم إلى يوم .

التطبيق الذي فيه اجتهاد سوف يزداد أهمية وتجد أمور جديدة باستمرار وستزداد مساحة الاجتهاد وكلما ازدادت مساحة الاجتهاد كلما اقتربنا من العلمانية لأن الاجتهاد من صنع البشر ، صحيح أن الاجتهاد مع النص لكن عملياً يقوم بها الإنسان

---

(٩) لماذا لا يطبق الحد في البلاد التي توفر فيها الحد الأدنى ثم نطبق التشريعات الإسلامية الأخرى في مصر وغيرها حتى يتوفر الحد الأدنى المطلوب .

(١٠) الحكومة الدينية بالمفهوم الأوروبي لا وجود لها في الإسلام وحديث النبي « أنتم أعلم بشئون دنياكم » خاص بما يخضع للتجارب المادية .

بالجهد الأساسي، فإن طبقنا حرفياً نبقى جامدين ونعجز عن مواكبة العصر، وإن اتسع نطاق اجتهادنا يبقى اقتربنا مما يدعو إليه العلمانيون وهو أن ندبر شؤون حياتنا بأنفسنا وهذا مأزق آخر في عملية التطبيق.

أسباب المعارضة والشكليات:

أريد أن أتحدث عن جانب آخر من الجوانب التي تدعو العلمانية إلى الوقوف إلى موقف المعارضة ضد التيار الإسلامي وهو أن التيار الإسلامي المعاصر لديه اهتمام مفرط بالشكليات. الأمور الشكلية تحتل من فكره مساحة هائلة، والأمور الجادة، المشاكل الحقيقية للمجتمع نادراً ما ينصب الاهتمام عليها وأنتم تعلمون جميعاً إلى أي مدى تسيطر على الشباب التيارات الإسلامية المعاصرة مسألة اللبس[١١] واللحية وعدم الاختلاط بالجنس الآخر والبنات في سكة والأولاد في سكة.

لكن قبل هذا هناك ألف مشكلة ومشكلة تعترض مجتمعاتكم ويجب أن تكونوا أكثر اهتماماً بها شوفوا مشكلة العلاقات الدولية، شوفوا مشكلة الاقتصاد، شوفوا الأزمات الحقيقية التي يعانيها الإنسان في المجتمعات العربية وناقشوها بموضوعية وجدية.

شيء آخر الحقيقة أريد أن أعرضه عليكم وهو طريقة التفكير بمنهج معين، أنا أعتبر أنه منهج ناقص واسمحوا لي أن أقول إحنا هنا جئنا لكي نتناظر، كثير من النقاط التي أثارها الأستاذ / البهنساوي عندما أراد أن يثبت وجهة نظر الإسلام فيها اتبع الآتي، حدث مرة مع عمر بن الخطاب كذا ... وكذا ... وكذا، أبو بكر قال: كيت ... وكيت ...، عائشة قالت: ......

بعد كل قصة يستنتج هذا هو موقف الإسلام من كذا، هل هذا منهج فكري، إننا نذكر حادثة واحدة أو عشرة، نستنتج منهم استنتاج خاص ونعمل من هذا التعميم الهائل الضخم ويقول هذا هو موقف الإسلام من قضية المرأة مثلاً أو من

---

(١١) تقصير الثياب ليست ظاهرة عامة بل فردية ولا تمنع من الاهتمام بالأمور الهامة.

المسألة الفلانية من حكاية أو من حكايتين[١٢] .

يا جماعة مع كل احترامي أنا أدرك أنه فيه معارضين كثيرين لي وأنتم كارهين كلامي لكن كلامي حيفيد مش حيضر . المسألة هي يجب أن نطلب ، أنتم أنفسكم يجب أن تطالبوا بأن الكلام الذي يعرض عليكم يلقى بمنهج علمي سليم ليكون مقنعاً ، طيب أنا سأقول لكم على حاجة لا بد أن معظمكم رآها مثلي في تلفزيون الكويت منذ أيام قلائل وفي نفس الاجتماع الذي تفضل الأخ البهنساوي بالحديث عنه اللي هو الجمعيات الخيرية الإسلامية ، تحدث الدكتور يوسف القرضاوي في التلفزيون وقال : لا بد أن نجمع أموالاً للجمعيات الخيرية الإسلامية لأنكم تعلمون أنه قد حصل اجتماع في كلورادو وخصصوا ألف مليون دولار لمحاربة الإسلام ، هذا الكلام جاء في كتاب ولم يقل ما هو اسم الكتاب سنده هو أن الكلام ده ورد في الكتاب ، ولم يذكر ايم الاجتماع ولا الهيئة المتحدثة فيه ولا زمانه ...[١٣] .

أعداء الإسلام يبقوا مجانين لو خصصوا مليون واحد لمحاربة الإسلام لأن المسلمين تكفلوا بهذه المهمة حالياً ويقتلون بعضهم بعضاً ولا حاجة لأعداء الإسلام أن ينفقوا فلساً واحداً لهذا الغرض .

ويجيء الدكتور / القرضاوي وهو من الأقطاب ويعرض علينا هذه المسألة بلا سند . وكم من قضايا تعرض بهذا الشكل .

لذا أقول أن نقطة التساهل والتراخي في المنهج العلمي والتفكير العلمي وأنتم كشباب لا بد أن تطالبوا بالمنهج العلمي في التفكير وأن الذي يملى عليكم يجب أن يكون موثقاً ومنطقياً لأن الدعوة الحقيقية لا يمكن أن تقوم على عموميات غير مؤكدة تتداول من لسان إلى لسان ، أما التي تقوم على أسس راسخة ومتينة يكتب لها النجاح بلا شك .

العلمانية والتغريب :

أود أن أتكلم عن نقطة هامة جداً وهي الربط بين العلمانية والتغريب ، وهذا شيء

(١٢ و ١٣) انظر الرد على ذلك في الفصل الثالث .

أيضاً أشكر إليه الأخ الكريم سالم البهنساوي وأيضاً كثيرين آخرين ممن ينتقدون أو يهاجمون منهج العلمانية مسألة الربط إن العلماني لا بد أن يكون إنسان سائر على طريق الغرب ، متغرب ، إنسان فاقد لهويته ، أود أن أرد على هذه النقطة :

بالأمس فقط كنا في محاضرة يلقيها زميل لنا بعنوان الفكر الإسلامي بين العقلانية والتقليد وهذا الزميل الذي كان يدافع بحرارة وتحمس عن وجهة النظر الإسلامية كان يعرض علينا تيارين ظلا سائرين طوال الفكر الإسلامي ، تيار منهم عقلاني وكان يمثله المتكلمون وخصوصاً المعتزلة وبعض الفلاسفة، وتيار آخر كان يمثله الأئمة المعروفين . المهم أن الخلاف الحالي بين التيارات العلمانية وبين التيارات الإسلامية التي تدعو إلى التطبيق الإسلامي الشامل هو نفسه صراع ظهر في صميم البيئة الإسلامية من قبل ، لماذا نقول إن العلمانيين المعاصرين أتباع أوربا أو أتباع ماركس إذا كان عندنا في تاريخنا الإسلامي نفسه شيء مماثل وجوهر القضية كان واحداً .

ولذلك أنا أقول أنه من الخطأ أن نصف العلمانيين المعاصرين بأنهم ما هم إلا أتباع للفكر الغربي وممكن واحد منكم يضرب لي أمثلة على ذلك . مضبوط الكلام ده ، لكن التعميم غلط لأن الصراع بين العقل والنقل بين ما كان يسمى بالحكمة والشريعة إلى آخره ، كان صراع ظهر في صميم الحضارة الإسلامية ، وكما هو حادث الآن والعلمانيون المعاصرون الآن كثيرين منهم هم ورثة المعتزلة وورثة ابن رشد وورثة ابن الهيثم وورثة ذلك التيار الإسلامي الطويل الذي لم يكن غريباً ولا مستغرباً ، وليس له علاقة بأوربا .

إنني أتساءل ألا يوجد علمانيون يناضلون بقوة وبشجاعة ضد التبعية للغرب ويدخلون من أجل هذا في السجون ويضطهدون ؟ ومن جهة أخرى كم واحد من دعاة التطبيق الحاليين استطاع أن يتصدى بقوة للمصالح الغربية التي تنهش في مجتمعاتنا من تحالفات سياسية وتغلغل اقتصادي إلى آخره ، كم واحد أعلن برنامجاً حقيقياً للوقوف ضد هذه المصالح لذلك أعود فأقول إن مثل هذا الترغيب هو كم معمعم أكثر مما يجب ، ولا شك أن العلمانيون فيهم اليمين واليسار وفيهم الليبرالي والاشتراكي وهم تيارات مختلفة لكن هم يجعلون الخلافات والصراعات السياسية والاجتماعية البشرية

وليس ذلك كراهية منهم لأي دين أو شريعة وأعتقد أنني أخذت وقتاً أقل من وقت الأخ / سالم البهنساوي وأشكركم لحسن استماعكم ...

تعقيب من ممثل اتحاد الطلبة :

عقب الطالب نصار الخالدي فقال :

بالنسبة لقضية الوقت كلا الأستاذين الفاضلين أخذا نفس الوقت مع ملاحظة أن الدكتور / فؤاد زكريا تكلم كطلبه بعد الأستاذ / سالم البهنساوي فمن باب الموضوعية ترك المجال للأستاذ سالم البهنساوي للرد مع فتح باب النقاش بعد ذلك حسب ما اتفق عليه قبل بدء المناظرة .

الفصل الثالث
التعقيبات والاجابات

- تعقيب د . محمد صالحية والجواب عليه
- عشر سلبيات في مناظرة د . فؤاد زكريا
- الجواب حول عقيدة د فؤاد زكريا
- الجواب عن الديمقراطية والشورى
- تعقيب عبد الله محمود
- تعقيب ناجي الأنصاري
- تعقيب محررة الوطن
- تعقيب د . أحمد البغدادي



إعتراض محمد صالحية

وتعقيب المستشار البهنساوي

تحدث الطالب نصار الخالدي الممثل للاتحاد الوطني فقال بناء علىٰ الإتفاق يحق للمشتار البهنساويٰ أن يشرع في التعقيب علىٰ النقاط التي تعرض لها الدكتور فؤاد زكريا حيث تناول في محاضرته، فقام الدكتور محمد صالحية الأستاذ بكلية الآداب ووجه الحديث بقول: لما حضرتك اكتشفت السلطان الكامل وقلت إن القاضي قال إنه مش عدل ولكن في كتاب المقريزي أن الكامل كان في الشام والقضية رفعت عليه في مصر والقاضي الذي حكم عليه وهو في مصر وكان متستراً بالخلاف الذي حدث بينه وبين أخيه، فأصدر الحكم أنه معندوش كفاية ولا عدل وكان بعيد عنه، وأيضاً قلت إن الجزية دينار في عهد سيدنا عمر وعهد الخلفاء، ولكن بعدها صارت تؤخذ جماعي يجي مثلاً اليهود كام واحد القدس ١٧٠ واحد عليكم ألف دينار كانت تحسب جماعي سواء فقير أو غير فقير خاصة في العهد المملوكي هنا ارتفعت الأصوات فقال المستشار البهنساوي، أيها الأخوة أرجو أن نلجم نزوات العواطف بنبرات العقول. وأنا أشكر الدكتور فؤاد زكريا علىٰ أن طلب الحوار بالعلم والعقل. فعاد الدكتور صالحية للحديث فقال:

النقطة الثالثة قلت ما ورد في الإنجيل حول الإنسان فاسد وهذا محل نظر . إنت مش قلت هذا؟

قال الأستاذ سالم البهنساوي :أنا لم أقل هذا، أنا قلت : قال الدكتور موريس / موريس بوكاي كل ما ورد في التوراة والإنجيل عن الإنسان والكون غير صحيح ولم أقل فاسد وكتابه موجود وأنا أنقل عنه ولم أبتدع من عندي.

ومسألة السلطان الكامل فهو كان يحكم مصر والشام وكان مقره في الشام والقاضي كان من رعايا هذه الدولة.

أما الجزية في عصر المماليك، فهؤلاء ليسوا حجة على الإسلام إن صح ما تقوله جدلاً، فاعترض أستاذ التاريخ وقام للرد فحدث اعتراض من الحضور وتعالت

الأصوات فقال المستشار البهنساوي ، أيها الأخوة ، أيها الأخوة أرجو أن نلجم نزوات العواطف بنبرات العقول ، وأنا أشكر الدكتور فؤاد زكريا على أن طلب الحوار بالعلم والعقل ، ونحن من هذا المنطلق (يعلم الله) نوضح أموراً ذكرها عني الآن مثلما ذكرها الأخ الفاضل أستاذ التاريخ عني الآن ، وأنا ما زلت على المنصة وأريد أن أوضحها ، وليس معي سحر حتى أقنع الأخوة بشيء مما قلته فالكلام الذي نحتكم إليه ما زال ماثلاً في العقول .

في البداية الأخ الفاضل يقول : إنني قلت كل ما ورد في الإنجيل عن الإنسان أنه فاسد وأنا قلت قال الدكتور موريس بوكاي في كتابه « مقارنة الكتب المقدسة » وهي التوراة والإنجيل والقرآن . قال ان كل ما ورد في الإنجيل والتوراة عن الإنسان والكون والحياة لا يواكب العلم وغير صحيح ، وإذا كان الدكتور موريس بوكاي قد أخطأ ، ففيه قاعدة تقول ناقل الكفر ليس بكافر ، وأنا أعتقد أنه لم يخطئ وأستطيع الآن أن أنقل إليكم من التوراة والإنجيل أموراً لا يصدقها أي إنسان ولا هم أنفسهم يصدقونها .

الأمر الآخر أريد فقط بإيجاز ومن باب الاحترام للدكتور فؤاد زكريا أن أوضح بعض النقاط التي ذكرها الآن نقلاً عني في تعقيبه على أقوالي :

الأمر الأول : مسألة الربط بين العلمانية والتغريب ، أنا في ربطي هذا كنت أنقل عن الدكتور / عصمت سيف الدولة وهو مفكر قومي وليس إسلامياً ، قال ذلك في كتابه (العروبة والإسلام) وبعض الحلقات من هذا الكتاب نشرت في صحيفة الوطن في الكويت لعلكم قرأتموها .

الأمر الثاني : العلمانية هنا ، الدكتور فؤاد زكريا أعطاها اصطلاحاً لم يقل به أحد من قبله ، فهم ليسوا كالمعتزلة ، إن العلمانية اصطلاح ورد في المعاجم كلها هي ترجمة لكلمة سيكيبلورزم Secularism هذه الكلمة لها اصطلاح محدد عند الغربيين واصطلاحها يعني : « فصل الدين عن الدولة ، وأن كل ما هو ديني فلا علاقة له بالحكم ولا بالتشريع ، وينحصر الدين في الطقوس العبادية فقط » ، هذا الاصطلاح

مجمع عليه ، إذا أريد أن تكون للعلمانية اجتهاد إسلامي كالمعتزلة أو غيرهم فهذا أمر آخر ولا يكون مناقضاً للدين . ولكن لم يقل بهذا الذين وضعوا هذا الاصطلاح .

ثالثاً : مسألة الاهتمام المفرط بالشكليات : نحن معه وقلنا هذا ولكن هذا الذي يفرط في الشكليات هو نفسه لو طالب بحكم **الإسلام** يعني هذا أنه سيطالب بتعديل الدستور ليضع نصاً لتقصير الثياب للشعب ، لو طالب هذا لندخلنه المستشفى . أما هو نفسه كفرد إذا فعل هذا فهذا من باب الحرية الشخصية فجدلاً إن لم يكن متبعاً للسنة ، نريد أن نفصل بين السلوك وبين التشريعات .

رابعاً : الدكتور فؤاد زكريا تكلم عن المنهج العلمي وذكر أنني جئت ببعض أحداث فردية واستنتجت منها **حكماً** وأنا لم أفعل هذا ، وإنما ذكرت أصولاً بنصوص في القرآن والسنة ، أولاً في الشورى ذكرت نصوص الشورى وفي غيرها ذكرت النصوص أيضاً . ثم ذكرت الوقائع الفردية لا لأستنتج منها حكماً لا يمكن أبداً أن يأتي في حكم الإسلام من عمل أبي بكر ، هذا ويصبح أبو بكر رسول أو نبي وهذا لا يحدث أبداً ، وإنما قلت أذكر هذه الأمثلة لأن الماركسيين يزعمون أن الإسلام ليس له ضمانات في التطبيق . فقط ذكرت الأمثلة للرد على هذه الأمور .

خامساً : وأيضاً في مسألة المنهج العلمي فيما ذكره عن الدكتور / يوسف القرضاوي وعدم ذكره اسم المؤتمر ، فالدكتور / فؤاد زكريا الآن ذكر عن محاضرة لم يذكر اسم صاحبها ولا مكانها ولكن لماذا؟ هل نقول هذا ليس تفكيراً علمياً؟ لا .. هو تفكير علمي ، لأنه يعلم ويعتقد أنكم تعلمون بهذه المحاضرة . فلأنه كان يعلم أو يظن أنهم يعلمون المحاضرة فلم يذكر ذلك ، فالدكتور / يوسف القرضاوي عندما ذكر اسم المؤتمر يعلم أن هؤلاء الحضور لديهم بيانات عن هذا المؤتمر العالمي وإذا أراد الدكتور فؤاد أرسل إليه هذه الصحف الخاصة وفيها هذه الأمور : من ضمنها مثلاً ميزانية ٨٧/٨٦ هي ١٣٠ ملياراً فقط لشيء هام هو تنصير المسلمين ، ووضعت خطة لأندونيسيا وخطة للصومال ، واشتروا أطفالاً مسلمين في لبنان ، وفيه مؤامرة أعرفها بالحرف . بلد مسلم باع أطفالاً في حوادث إلى كنيسة هناك ، وبعض المحسنين من البلاد العربية عادوا واشتروا بعض هؤلاء ونقلوهم إلى بلاد أفريقية باعتبار

أن التكلفة رخيصة هناك . فمسألة سياسة التنصير والميزانية موجودة وهذه المؤتمرات معروفة ، فإذا كان الدكتور / يوسف لم يذكرها فلهذا السبب . أنا لا أدافع عن خطأ ولكن لم يذكرها لشيوعها .

سادساً : الدكتور / فؤاد قال إنني فيما ذكرت أمثل اجتهاداً معيناً في التاريخ ومن يضمن له إن هذا الاجتهاد يطبق كما هو .

والإسلام فيه أمور اجتهادية وأمور هي نصوص قطعية فمما ذكرته من الأمور هو الأمور المتفق عليها ولم أدخل في تفريعات أو كلام عن الضمانات فهو محل نظر .

هذا الكلام كما يقال عن النص الإسلامي يقال عن أي نص قانوني مثلاً هنا في الكويت ، عندما تشكلت لجنة وعدلت القانون المدني من مجلة الأحكام العدلية التي كانت في تركيا ووضعت نصوصاً أخرى هل نقول : يا قوم لا يمكن ذلك ... قولوا لنا ما هي الضمانات ولا نترك ما نعتقد أنه غير صحيح أو على الأقل لم يحقق الشيء المنشود حتى توضحوا لنا الضمانات هناك فرق بين النص وبين التطبيق .

الهوى يدخل في النص عند اللجنة التي تضع النص يمكن يكون فيه هوى لكن هذه اللجنة هل ستكون هي الآمرة الناهية أم هناك نوع من الضمانات أن يعرض هذا الذي عملته اللجنة على لجنة تشريعية لمجلس أو لأهل الاختصاص . نحن لا نرفض الضمانات لا في القديم ولا في الحديث .

سابعاً : موضوع الفراعنة ولأن الفراعنة لهم أمجاد وحضارة هل نطلب حكمهم؟ نحن لا نطلب حكم الإسلام من أجل ما ذكر من الأمجاد . وما ذكرت أنا من الحوادث قلت ذكرتها للرد على مقولة الضمانات في التطبيق ، ومسألة الأمجاد ليست هي الأساس إنما هو التشريع . يوجد نص مثلاً في القوانين الجنائية في البلاد العربية أن الزنا ليس جريمة في ذاته وليس محرماً في ذاته وإنما يحرم إذا اقترن الزنا بفتاة دون السابعة عشرة (أو أكبر من ذلك) بغير رضاها أو زنا الزوج في منزل الزوجية ، وهذا في أوروبا ، ولكن الأمر الإسلام حكم فيه حكماً قاطعاً لا جدال فيه فإذا قلنا نبدل النص الفاسد بنص إسلامي ، هل سنقول في هذا نريد تجربة؟ إن هذه ليست لها علاقة بالتجربة إطلاقاً ولا يقال هنا ضمانات التطبيق .

ثامناً : مسألة الحدود ، فنحن مع الدكتور فؤاد زكريا في مسألة الحدود فقط لأن الإسلام نص على ذلك ، فلا يمكن البدء بالحدود إلا بعد إقامة المقومات الأساسية . يقول الدكتور فؤاد زكريا : إذن أمامنا إشكالين : إما أن ننتظر فنؤخر الحدود أو لا ننتظر . قال : ننتظر ، ولكن **هل ننتظر** على هذا العوار أم نبدأ بإصلاحه ، إذن لا بد من البدء ولا نقول أبداً أن في البدء نأخذ بكل الحدود ونطبقها بما لا يمكن أن يوافق الواقع الذي يحتاج لشروط لتطبيق الحد من ضمن شروط كفالة هذا الإنسان ، فعمر في عام المجاعة أوقف الحدود لعدم توفر الشروط . وهذه الأمور مسلمات في الإسلام .

تاسعاً : قوله إن خصومهم اختاروا لهم اسم العلمانيين ، لقد ذكرت أن العلمانية اصطلاح لم نختره للأخوة العلمانيين ومنهم أساتذة حضور هنا يكتبون في كتاباتهم أنهم علمانيون . فوصف العلمانية لم تأت به الصحوة الإسلامية أو أفرادها على أحد ونحترم الدكتور فؤاد فيما يختاره لنفسه من وصف وإن لم يرد هذا الوصف فله ذلك .

عاشراً : أما العلمانية المعاصرة وأنها فقط مجرد تبصرة أو رد فعل فأنقل لكم ما قاله الدكتور/ عصمت سيف الدولة عن العلمانية المعاصرة وقلت أنه ليس من علماء الصحوة الإسلامية بل هو مفكر قومي قال : « إن العلمانية المعاصرة أصبحت ديناً ومذهباً ويريدون إكراه الأكثرية المسلمة على حكم الأقلية العلمانية » والكتاب موجود في المكتبات عن الإسلام والعروبة .

حادي عشر : تطبيق الإسلام : ذكر أن الضعف البشري يحتاج إلى ضمانات التطبيق للارتفاع بمستوى هذا الضعف البشري ، ولكن من أين يأتي هذا الضعف البشري؟ يأتي من أنواع معينة من الفساد ، فإذن هذه الأمور لو منعت وعولجت ثم يأتي التطبيق ، يصبح التطبيق صحيحاً .

الأمر الآخر للتخوف من التطبيق وهو بإيجاز أيضاً ، الدكتور / فؤاد ذكر في كتاب له عن الحركة الإسلامية (بين الحقيقة والوهم) أنه لا توجد ضمانات في التطبيق وأن الموجود هو نصوص فقط . والصحوة الإسلامية نذكر لها نصوصاً فقط ولا نأتي لها بتطبيقات ، وهنا أنا ذكرت بعض التطبيقات ليس لأستخلص حكم

الإسلام من هذه التطبيقات وإنما لأوضح هذه المسألة ، فقال أنه لا توجد نصوص بل تطبيقات فقط .

لا أريد أن أطيل أكثر من هذا ، ولا أريد أيضاً أن أرد على كل ما ذكره فالمسألة هي اختلاف في الرأي ، ولكن أردت أن أوضح الأسس التي استندت عليها في الحديث وما زلت أقول أن التشريع الإسلامي ــ وعندما أقول التشريع الإسلامي لا أعني تطبيقات البشر ولا أعني أمراً خلافياً ــ فيما ذكره الدكتور فالأمور التي منع الإسلام فيها الناس من الاجتهاد أو الاختلاف عليها متصلة ، قال الله تعالى : ﴿ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ﴾[2] فهذه جعلها من الأمور القطعية ولا خلاف عليها ، هذه الأمور ما زلت أقول لا يستطيع أحد أفراداً أو جماعات أن يثبتوا أنها ضارة بالناس لأنها تتعلق بأمور خاضتها الإنسانية في تجاربها ولا نريد أن نجرب فيها . الخمر الآن ضررها البشرية قد عرفته بالتجارب أم نأتي نحن الآن بقوانين لا يعلمها الناس ثم نسأل عن التجارب ؟؟ . إن هذه الأمور قد جربها غيرنا وعندما نطالب بالعودة لتشريع الإسلام فالمسألة ليست تجربة النميري أو تجربة غيرها .

بقي شيء واحد وأعتقد أنه ليس دفاعاً عن النميري . النميري كان يدعي أنه ماركسي ثم يدعي الإسلام ولا يُعرف حاله على وجه اليقين ، ولكن نقول ليس من المنهج العلمي أن نأخذ ما قاله خصوم النميري عنه في مسألة قطع الأيادي بالجملة وغير ذلك . النميري تسرع ولا أقول أنه صحيح في هذا فقد يبدأ بالحدود وهذا خطأ أمانيته في هذا هل هو مدفوع من أمريكا مع بعض البلاد المتعاونة معها لإظهار تطبيق سيء للإسلام أم أنه مخلص وطبق بجهل يترك ذلك للزمن .

---

(١) سورة الأنعام آية ١١٩ .

(٢) النحل ١١٦ .

أسئلة الجمهور

تولىٰ ممثل إتحاد الطلبة فبرز أسئلة الجمهور والتي وصلت مكتوبة ووزعها علىٰ قطبي المناظرة كل فيما يخصه فكانت علىٰ النحو التالي:

جواب الأسئلة

وردت أسئلة مكتوبة من الحاضرين وتعليقات من بعض أساتذة الجامعة وأجيب عليها على النحو التالي:

س ١ حول عقيدة الدكتور فؤاد زكريا وحوِّل إلى الدكتور فؤاد زكريا وجوابه.

س ١ هل أنت مؤمن؟ وما هو موقفك من قضية الإيمان بالله؟

ج ١ لم يكتف السائل أن يحاول أن يفتش ما في قلبي، إذا أراد أن يفتش روحي من الداخل وكم أتمنى أن يقدم لي التفويض الإلهي الذي سمح له أن يسأل الناس عن عقيدتهم حتى أستطيع أن أجيب عن سؤاله.

ــ أحد الحاضرين ــ هذا هروب.

ــ د. فؤاد ــ كده، إذا كنت بتعتبرها هروب يبقى لك أن تقول هذا كل واحد على راحته. إحنا يا جماعة يعني أنا قلت من البداية أنا كلامي مختلف عنكم حنختلف وأنا لست حزيناً من أجل هذا بالعكس أنا سعيد جداً أنا في فرحة إحنا نتحاور مع بعض ولا واحد حيصفق لي ولا واحد حيقولي أحسنت ولا واحد حيقولي الله يفتح عليك أنا متأكد من هذا من البداية، لكن مش دي المشكلة لكن المهم في الأمر أن المسألة إنه لما يجي يقولنا ما هي الضمانات التي توجد في تطبيق الأنظمة الأخرى، الحقيقة في فرق كبير بين الاثنين ودي النقطة التي أتمنى أن تكون واضحة في الأذهان.

الأنظمة الأخرى لا تدعي أنها إلٰهية، بتقول إن إحنا أنظمة بشرية وبتقول إن احنا اجتهاد نصيب أو نخطئ ونعترف إن الإنسان كائن ضعيف ولكن هذا الكائن

الضعيف بقوي نفسه وبيكتسب مزيد من الخبرات ومزيد من التجارب ومزيد من النجاح ومزيد من التقدم وكل من يقارن وضع الإنسان بما كان عليه من ألف عام مثلاً والإنسان بما هو عليه الآن من تقدم ومن علم ومن ازدهار ومن حياة أفضل وصحة أحسن وغذاء أحسن .. الخ ؛ بيجد أن هذا الإنسان بكل ضعفه استطاع أن يحقق لنفسه أشياء جيدة جداً ولا يزال أمامه تاريخ طويل لو ما ناقش نفسه في حرب عالمية ثالثة لسه قدامه تاريخ طويل وسيحقق المزيد والمزيد . فهذا هو الوضع بالنسبة للأنظمة الأخرى لا تقول أننا نظام إلٰهي وإننا نحن الذين سنحقق العدالة وسنقيم الحكم الإلهي على هذه الأرض . هي بتعترف من البداية إن المسألة مسألة محاولة وخطأ بنجرب مابتنفعش بنصلحها وقابلة للإصلاح إنما الخطورة وطلب الضمانات ليه يا جماعة . من النظام الذي يطالب بتطبيق الشريعة هو أنه سيقول إن هذا هو النظام الإسلامي الذي يقره الله ، وإن هذا هو حكم الله . المعارض مش حيبقى اسمه معارض ، المعارض حيبقى اسمه كافر أو زنديق ودي الكارثة الكبرى . الحاكم لما يخطئ لن يعترف أنه أخطأ لأن له مصلحة أو لأنه ضعيف لا يتمسك برأيه أو بأخطائه ويحاول أن يبرره وكثيراً ما يصدر من ضعاف النفوس من يستطيعون أن يقدموا له فتوى هنا أو هناك ويستمر هذا الخطأ ولكنه يقدم إلى الناس على أنه جزء من المشيئة الإلهية . هذه خطورة ولهذا السبب لا نقارن بين تطبيقه وبين الأنظمة الأخرى ، لأن الأنظمة الأخرى بتقول إن احنا بشر وبنصلح نفسنا باستمرار لهذا السبب اعتبر أن السؤال لم يضع يده على الشيء الفني . لماذا لا يكون النميري علمانياً ؟ جايز جداً ، بس الكارثة هي أنه وجد من رجال الدين من يصفقون له ويسمونه إماماً ، هذه الكارثة .

س ٢ إلى المستشار البهنساوي (حول الديمقراطية والشورى)

س ٢ ما الفرق بين الشورى في الإسلام والديمقراطية الزائفة ؟

ج ٢ ـــ أولاً يبدو أن الأخ لم يحضر المناظرة كلها ، أنا ذكرت الفروق الإجمالية بين الشورى والديمقراطية وقلت بإيجاز أن الديمقراطية تبنى على أمرين : أمر يتعلق بحق الأغلبية في التشريع ولو كان هذا التشريع مصادماً لنصوص القرآن والسنة وهذا هو

الجانب الذي يعترض عليه بالنسبة للديمقراطية ، الجانب الآخر يتعلق باختيار الحاكم ومحاسبته وعزله ، قلت هذا الجانب الإسلام سبق الديمقراطية فيه وذكرت الأمثلة ، وبهذه المناسبة كان الدكتور / فؤاد طلب مثل واحد من أي حد من الصحوة الإسلامية قام ضد المصالح الأمريكية أو غيرها أحب احقاقاً للحق نقلاً عن أحد الصحافيين وهو د . أحمد بهاء الدين ويقال عنه أنه يساري ، ولا أقول أنه يساري أو غير يساري ، أنا أقرأ قوله فقط وأحترمه . كتب للأمة العربية أن د. المهندس أربكان رئيس حزب السلامة في تركيا عندما نادى بالتصنيع الثقيل والاستقلال عن أمريكا حدث انقلاب عسكري بتوجيه من أمريكا وحُظَر حزب السلامة واتخذت ضده إجراءات حازمة وقدم ضده عشر اتهامات ذكرها أ . أحمد بهاء الدين من ضمنها أنه ينادي إلى عودة اللغة العربية وعودة تركيا إلى العرب وقطع العلاقات مع اسرائيل ، وذكر الأستاذ أحمد بهاء الدين هذا الكلام هل يخص العرب أو لا يخصهم؟ لماذا لم نسمع صوتاً واحداً من العرب ينصر هذا الرجل؟

مسألة الفتوى التي ذكرها الدكتور فؤاد وأنه معه في خطأ وهي سرقة المال العام هي لا تستند إلى نص في القرآن أو الحديث إنما هي قياس من بعض العلماء على بيت المال إذا سرق منه أحد لجوع أو غيره يقام عليه حد آخر غير السرقة ولكن بيت المال غير البيت العام أو المال العام أي حالياً . هذه غير تلك ولا أتهم نوايا من قالها ولكن يعني للأسف الشديد الذين يسمح لهم بأن يصبحوا مفتين شرعيين رسميين أكثرهم ضعاف وليس لديهم القدرة على قولة الحق وهذه هي نكبتنا وشكراً .

س ٣ إلى الدكتور فؤاد حول ضمانات العلمانية .

س ٣ قلت أن التطبيق الإسلامي الإلهي سيكون من بشر ، وةالبشر ناقصون لا يستطيعون ذلك فمن سيطبق العلمانية وغيرها وهم بشر كالذين سطبقون الإسلام ، فأنت بشر أيضاً فكيف تناقض نفسك؟! هل نلغي البشر مثلاً ، النصوص الإلهية قابلة لعدة تفاسير وهذا رحمة من الله سبحانه .

ج ٣ ــ د . فؤاد : أظن أن السؤال ده كان أجيب ضمناً في السؤال السابق

ومسألة إنه بشر أيوة وأنا بشر وباعترف إني بشر لكن الخطورة في البشر اللي ينعطى لأفعاله صفة إلهية ، وشكراً .

الإسلام والكفر :

ــ الأخ / عبد الله محمود محمود عقب فقال :

الحقيقة يا إخوة إن ما يتفضل فيه الأخوين المحاضرين حديث ذو شجون والأصح أن نتبع الأسس التي يجب أن يبنى عليها مثل هذه الأحاديث ومثل هذه الأقاويل ، حيث أن هذه المحاضرة بين الإسلام والعلمانية فلي إقتراحين :

الاقتراح الأول الذي اتقدم به إذا كان يراد أن يعقد مثل هذه الندوة في المستقبل فمن الأجدر أن يطلق عليها (الإسلام والكفر) لأن العلمانية بحد ذاتها نظام كفر مناقض مناقضة تامة للإسلام ، فإذا قلنا ومسكنا الشطر الأول من الإسلام ، فالإسلام يقوم على حقيقة عقلية ينبثق عنها نظام ، فالإسلام يقوم على عقيدة لا إله إلا الله محمد رسول الله وأن لهذا الكون والإنسان والحياة خالق خلقها ووضع لها نظاماً دقيقاً يجب أن تسير عليه فإذا التزم هذا الإنسان بهذا النظام وآمن بعقيدته فهو مسلم وإن لم يؤمن بهذه العقيدة وإن لم يعتبرها أنها هي مقياس في الحياة فهو كافر ، فمن يكفر بآية واحدة من آيات القرآن أو بحكم قطعي واحد من أحكام الإسلام فهو كافر وسوف يحشر مع أبي لهب حتى لو صام وصلى وزعم أنه مسلم .

أما فيما يتعلق بنظام الحكم فإن نظام الإسلام وهو نظام من الخالق سبحانه وتعالى فليس من الحق أن يتفضل عقل الإنسان الناقص العاجز المخلوق المحدود لكي يحاكم قانوناً أو شرعاً منزلاً من قبل الله (سبحانه) فإذا جعلنا لهذا الإنسان الذي فيه كل صفات العجز والاحتياج أن نضعه لكي يحاكم نظام رب العالمين فنحن قد وضعنا قاعدة باطلة من أساسها .

أما بالنسبة لما يسمى بنظام الحريات فالإسلام قال في نظام محدد وصريح ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ النساء ٦٥ .

وقال: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾[1] إذاً موضع عقولنا كبشر لا تقتصر على محاكمة شرع الله وإنما واجب عقولنا أن ندرس النصوص الشرعية التي نزلها الله بالقرآن وبسنة الرسول ﷺ لكي نفهمها ونلتزم بها ونسير على خطاها.

أما بالنسبة بما يتعلق بنظام الحكم فنحن نعرف أن نظام الحكم في الإسلام هو نظام الخلافة الإسلامية يقول رسول الله ﷺ: « إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما »، ولهذا النظام الذي هو نظام خلافة قواعده وأركانه، فنظام الخلافة في الإسلام هو نظام الحكم في الإسلام يقوم على أربعة قواعد وعلى سبعة أركان، ويقوم على أن السيادة للشرع ـــ والسلطان للأمة ـــ ونصب خليفة واحد فقط على جميع المسلمين، وللخليفة وحده حق سنّ الأحكام وتبنى الدستور والأحكام مستنبطاً ذلك من كتاب الله وسنة رسوله، وأن الأركان في: الخليفة، المعاونون، الولاة، الجيش، النظام الإداري، مجلس الشورى، نظام القضاء.

واكتفي بهذا القول ونسأل الله سبحانه وتعالى أن تقولوا معي آمين أن يمن علينا قريباً عاجلاً بنظام حكم الخلافة الإسلامية.

رد الدكتور فؤاد زكريا:

ـــ قال ـــ الأخ الكريم قال إن المحاضرة تكون (الإسلام والكفر) يعني ضمناً إن الجماعة اللي زي حالاتنا دول كفار.

أنا أيضاً حقول بهدوء كلمة بسيطة جداً يبدو أن المحاضرة لم تصل إلى كل الحاضرين يعني كلام الأخ فعلاً معناه إن كل ما قلته أنا لم يصل إليه منه حرف واحد وإنه من البداية عند فكرة مسبقة وظل متشبثاً بها وسد أذنيه تماماً عن كل ما قلته خصوصاً إنني قلت بكل وضوح أن الموضوع في هذه المحاضرة ليست محاكمة الإسلام وإنما هو محاولة التطبيق الراهنة التي تعرض علينا على يد جماعات محددة ظهرت في السبعينات وكلكم حاضرون وكلكم شهود على أنني قلت ذلك أكثر من مرة ومع ذلك الأخ بيقول اللي بهاجموا شرع الله يبقوا كذا وكذا، ببساطة لن أرد عليه سوى أن أقول إن محاضرتي لم تقل ذلك.

(١) الأحزاب ٣٦.

العلم المادي وتكفير أهل المنطق :

سئل الأستاذ سالم عن رأيه في بعض الأمور هي :

ــ تكفير أهل المنطق .

ــ تغير الإنسان وجمود النصوص .

ــ القول إن العلم مادي .

ــ ادعاء الإسلاميين بأنهم معصومون ..... الخ .

ــ الأستاذ / سالم : بسم الله الرحمن الرحيم .

الأخ الكريم حشد عدة أمور وأرجو أن لا أنسى شيئاً منها .

ــ أبدأ من الأخير وهي مسألة إنكار بعض الأخوة للعلم البشري ووصفه بالمادية .

أيها الأخوة ــ العلم ــ هو علم لا ينسب لمادي أو غير مادي وأبجديات التعليم في الإسلام أن العلم مصدرين:

المصدر الأول الوحي ، والثاني الإنسان نفسه ، فالإسلام لا ينكر علوم الإنسان ولا تجارب الإنسان ، والنبي ﷺ كما ذكرت كان يقول « الكلمة الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أولى الناس بها » .

ولكن الإسلام يفرق بين علم للإنسان في أمر لا مجال للعقل فيه كأمور الحلال والحرام فهذا ليس بعلم فالله يقول ﴿ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ﴾[1] وعن العلم في أمور خاضعة للعقل والقضية واضحة عند المسلم فهذا لا يرفض وهو محل البحث العلمي .

مسألة : إن النصوص مر عليها قرون والإنسان يتغير فالإسلام في نصوصه إنما يوضع الأوامر بشأن الغرائز الإنسانية كيف يحكم بهذه النصوص سواء كانت نصوص عبادات أو معاملات أو عقائد ، هذه الغرائز لا يستطيع أحد أن يقول إنها تغيرت من عصر آدم إلى عصرنا أو أي عصر . الغرائز ثابتة أما الأمور الأخرى

---

(١) البقرة ١٤٠.

المتغيرة التي تتعلق بالصناعة والمعمار فهذه وسائل أخرى ، قلنا إن الإسلام تركها للناس مهما كثرت . بقي موضوع التفكير العلمي وأثره وتحريم المنطق ، أحب أن أقول وأذكركم أن أحد أئمة المسلمين وهو الإمام الغزالي كتب كثيراً في المنطق وأن الإمام علي بن أحمد بن حزم المسمى بأبي محمد الأندلسي الذي ظهر في القرن الخامس له كتاب (حد المنطق والمدخل إليه) ومما قاله أنه تلقى رسالة تقول له (انت تقرأ كتب أرسطو .. وأرسطاليس .. وفيها كفر) فقال لهم : هذه المسائل ما أدراك أنها كفر إذا كنت قد قرأتها فلماذا تعيب عليّ قراءتها وإذا كنت لم تقرأ هذه فالله يقول ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ﴾[1] وكيف علمت أنها كفر ولم تقرأها ، وإن كنت قد قرأتها فلماذا تطعن في قراءتنا لها .

الفهم هذا للأسف ليس منطق إسلامي بالمرة ولا أي شيء لأن الرسول ﷺ كان يرسل الصحابة إلى البلاد الأخرى ليتعلموا ما لدى أهلها من العلوم والفنون الحربية وغيرها .

---

(١) الآية في سورة الإسراء ٣٦.

أقوال من الطلاب والصحف والأساتذة

فيما يلي أقوال لبعض الحاضرين من الطلاب وتعليق محررة الوطن وجواب للدكتور أحمد البغدادي :

آراء الحضور وتعقيبهم

بعد انتهاء الوقت المحدد للرد على الأسئلةأعطيت الكلمة لمن طلبوا التعقيب بحيث يكون لكل فكر من يسانده من المعقبين .

تعقيب لشخص لم يذكر اسمه ــ الملاحظات التي تتعلق بما ذكره الأستاذ / سالم فهي **أولاً** ذكر بأن خلق الإنسان أن الله خلق الإنسان أصلاً لكي يعمر الأرض وأنا في اعتقادي بأن هذا الأمر لا ينفرد به الإسلام وحده وإنما الأديان السماوية كلها تذكر هذا الشيء بل وحتى الأديان غير السماوية ، هذا الأمر يجب ألا نخص الإسلام فيه . هذه ناحية .

ملحوظة : المتحدث لا يعرف أن الإسلام هو دين الله إلىٰ البشرية فكل رسول ونبي جاء بالإسلام والله يقول: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ ﴾ آل عمران ١٩ .

الأمر الآخر : أنه عندما ذكر قول الرسول ﷺ بأنكم أعلم بأمور أو بشئون دنياكم ، هذه العبارة تعني ضمناً إعمال العقل والتبصر في أمور الدنيا لأن العقل هو الأداة الوحيدة وهو الأداة الصالحة التي يمكن أن تسير بها حياتنا .

طالما العقل هو القاعدة وهو الأساس فلا أدري ما سبب طلب سن التشريعات من الشريعة الإسلامية سواء كانت هذه التشريعات مدنية أو سياسية ، طبعاً لو حندخل في سياسة حندخل في متاهات يعرف عنها الأستاذ البهنساوي قبل أن يعرف عنها أي إنسان آخر ، ولكن لأن الإسلام كما تقولون أنتم الإسلام دين ودولة ليكن

ــ اختلف معاكم ــ إذن في هذه الحالة سندخل في متاهات ليس لها أول ولا آخر .

اكثرت أيضاً من ازدهار العلم في الإسلام ، وهذا صحيح ولكن لماذا يغفل أحياناً العملية المزاجية التي كانت تنتاب الخلفاء بين حين وآخر وأقرب مثل عندنا في هذه الحالة محنة الإمام أحمد بن حنبل عندما كان المأمون يمسك بزمام السلطة ، كان المأمون من أشد ومن أكبر الدعاة إلى نشر العلم ، ولكن تعرف ماذا كان مصير أحمد ابن حنبل على يد المأمون عندما كان الخلاف قائماً بينه وبين المأمون حول قضية خلق القرآن .

أيضـــاً عندما تحدث الأستاذ البهنساوي عن كرومر وقال أننا سنخرج من مصر لنحكمها بحضارتنا ويحكمها المصريون بأنفسهم . نحن نسأل أنفسنا أيضاً كم من المسلمين أو مدعي الإسلام ساعدوا المستعمر على استعمارهم ، هذه ناحية .

الناحية الثانية : كم من المسلمين الذين ذهبوا إلى فرنسا واحد منهم رفاعة الطهطاوي وكان إمام في هذه الفترة عندما رجعوا إلى مصر كانت إسهاماتهم لا تقدر بثمن وأظن أن إسهامات مثل هؤلاء يمكن أن يكون بها نظير في عصرنا الحاضر ، هل نستطيع أن تقول أن هذا الذي تشبع بالتراث الفرنسي والثقافة الغربية ثم أتى إلى مصر لكي يرفع مجتمعه هل نستطيع أنه نقول أنه عربي أو علماني أو كافر كما تقال الكلمة أحياناً .والكلام عن الاقتصاد في الإسلام مجمل وغير محدد .

٢ ـ تعقيب الأستاذ / ناجي الأنصاري .

بسم الله الرحمن الرحيم

عندما رفع ماوتسي سونغ قلمه وشطب على البوذية انطفأت هذه البوذية من أرواح الصينيين وخرجت جذوتها أظن إلى الأبد ، ولكن الإسلام بالرغم من الحملات المنظمة وبالرغم من الكوارث التي حلت بالأمة وبالرغم الزعازع الفكرية والنفسية التي أصابت الأمة منذ القدم وإلى جانب الحضارة الغربية بجبلها ورجالها وأيضاً جاءت بكل فنون التضليل وكل فنون الحرب واستعانت برجالها وجلاديها ، إلا أن هذه الأمة ظلت تصرخ ألا أمل في الحياة إلا بالإسلام ، فلماذا هذا التوق في الأمة إلى الإسلام ؟ هل لأنه صفحة مجيدة كما قال الدكتور ؟ هل هو لأنه تراث كما يشاع الآن في الحملات الصحفية وغيرها ؟ هل في الإسلام ميزة أخرى فاقت لها كل ما أنتجته العقول البشرية سواء تلبست بوشاح الأديان أو تلبست بلبوس المبادئ والفلسفات والأيديولوجيات على مر الزمن ، الإسلام فيه ميزة واحدة أنه يوافق العقل والفطرة .

فما جاء به الإسلام من أمور متعلقة بالله وبالكون وبالإنسان وبالحياة ، كما قال الدكتور البهنساوي في استشهاده بموريس بوكاي سيشهد لها أمران : آيات الأنفس ، وآيات الآفاق ، ولذلك ربط الله سبحانه وتعالى أحقية هذا الدين بأنه سوف تشهد له آيات الآفاق والأنفس ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾[1] فعلى هذا الأساس نجد عندما قال الدكتور فؤاد أن الأمة جربت وجربت القضية ليست جربت وجربت لا اشهد التاريخ وشهدت النفس البشرية بأحقية هذا الدين وقبل ذلك شهد العقل البشري لهذا الدين .

لكن أي دين .. هل هذا الدين عائم وهل هذا الدين مفتوح هل هذا الدين لا توجد ضوابط وقواعد تحثنا لأخذ هذا الدين ، اذكر عبارة للشهيد / سيد قطب عندما تحدث في كتاب (معالم في الطريق) « في فصل لا إله إلا الله منهج الحياة » يقول وليس لأحد من البشر أن يقول إن هذا دين الله ويجتهد على الشرع حتى علماء الإسلام والمسلمين ليسوا لهم حق أن يقولوا هذا من عند الله وهذا من عند أنفسهم

(١) سورة فصلت ٥٣ .

بل (عبارة) شرحها الدكتور / البوطي في معرض الرد على الدكتور فؤاد زكريا في مجلة الأمة القطرية التي أوقفت يقول : القضية قضية منهج وقضية قواعد بمعنى أن مجتهدي الإسلام لم يأتوا بأهواء أبداً ، القضية هي أن العقل المسلم تعامل مع النص حسب قواعد محددة وهذه القواعد كما قال سيد قطب استنبطت من النص نفسه ولم تخرج عن النص من أول المسألة إلى آخرها وعندما يسير عقل المجتهد في استنباط الحكم الشرعي يسير حسب قواعد فهناك وهناك قواعد تتعلق بالمطلق والمقيد وهناك قواعد تتعلق بالعلة .. وهكذا .

وهذه القواعد لو اطلع عليها من يدعون أو من يعيبون علينا الرجوع للكتب الصفراء لذهلوا من أن هذه الأمة تخلت عن هذه الكتب ، فلم تلمع العبقرية التي أنتجتها عقول المسلمين في هذا المجال والتي أجبرت الأوروبيين في التعامل مع النصوص القانونية والتاريخية مما يعرف في علم المصطلح الحديث (علم أصول الفقه) فعلى هذا الأساس لا يوجد لدينا مشكلة في قضية استنباط الحكم وفي قضية شرعية هذا الحكم من عدم شرعيته .

بالنسبة للعلمانية في الواقع مثلما قال الأستاذ / البهنساوي هي اللادينية ففي دائرة المعارف البريطانية عندما عرفتها قالت : بأنها عبارة عن حركة اجتماعية كانت ترمي إلى التركيز على الحياة الدنيا وترك الآخرة (ليه) لأن أركانها بنيت على ترك قضية الآخرة كرد فعل للرهبانية التي دعت الإنسان في هذه الحياة أن يعيش كمن يسير على جسر دقيق يحاول أن يوجد التوازن ولا يقع فعليه أن يحترس ويعيش بحذر إلى أن يموت ، وحاولت أن تزهد الناس في هذه الحياة وحاولت أيضاً أن تخلصهم من نوازع الجسد وتبرز ناحية الروح فحصل إنحطاط لهذا السبب ، أما الإسلام فميزته أن يبنى العالم الأخروي من مادة هذه الحياة ، لذلك فالرسول ﷺ يقول : إذا فعلت كذا فلك كذا وإذا فعلت كذا فلك كذا ، وعندما يقول : أن رأس الأمر الجهاد ، وعندما يقول : « إن الملائكة تقف عند بناء ملك المؤمن بحسب ما يزوده المولى من أعماله حتى النهاية » .

فالقضية وجهين لعملة واحدة ، لا تنحسر قضية الآخرة عن الدنيا ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فلا انفصالية بين الأمرين .

العلمانية في الحقيقة هي عندي كالقومية هي عبارة عن وعاء فارغ ، أنا أحترم الإنسان أن يكون شيوعي ويصرح بذلك وأحترمه إذا كان رأسمالي ويصرح بذلك ، ولكن أن يقول علماني كمن يقول أنا قومي لا تعرف اتجاهه ولا تعرف آراؤه فقط يقول أنا أنقد ، وكان لي نقاش مع الدكتور / فؤاد قبل أيام وقال لي نريد أن نقف ، ولكن أن نقف إلى أين ، قال نتعايش يعني الحقائق متغيرة .

الإسلام والعلمانية في ندوة في جامعة الكويت

تعليق جريدة الوطن

الإسلام والعلمانية كان عنوان الندوة التي دعا إليها الاتحاد الوطني لطلبة الكويت مساء أمس الأول بمقر النادي بالخالدية وتحدث فيها د . فؤاد زكريا ــ رئيس قسم الفلسفة بالجامعة والمستشار سالم البهنساوي خبير إدارة شؤون القصر وعنوان الندوة يوحي بحوار مفتوح ومساجلة بين ممثلي التيارين إلا أن الاستطراد والدخول في العموميات حول الندوة إلى ما يشبه المحاضرة ، فكان نصيب النقاش أقل نظراً لتأخر الوقت . على أية حال الندوة في حجمها كانت جيدة أتاحت لنا فرصة الاستماع إلى وجهة نظر وحجج تيارين متعارضين وهو ما نفتقده في منهج حياتنا العام . وفيما يلي عرض لوقائع الندوة[1] .

استهل البهنساوي كلامه بقوله إن الله خلق الإنسان الرسالة سامية في عمارة هذه الأرض ، وبالتالي فإن ما يتغير بتغير الزمان والمكان قد تركه للإنسان يستفيد فيه من تجاربه ومن تجارب العوالم الأخرى . لأن أمور الدنيا تخضع للصواب والخطأ ، بينما أنزل التشريع فيما لا مجال فيه للعقل ...ثم تطرق لدور رجال الدين في المسيحية وزعمهم أنهم ينطقون باسم الله ، نتج عن ذلك توزيعهم لصكوك الغفران وانشاؤهم لحكومة دينية تحت زعم أنهم معينون من قبل الله ولا سلطان لأحد عليهم ، فتجاوزوا أمر دينهم وحرموا أموراً لم يحرمها الله مثل البحث العلمي ، فقتلت أعداداً من العلماء تجريماً لهم . وكانت ردود الفعل اتجاه هذا الوضع متباينة . فادعى البعض أنهم يتصلون بالله عن طريق العقل ولا حاجة لهم بالبابوات أو الأنبياء كما قامت الثورة الفرنسية لتفصل الدين عن الدولة حتى يكفوا عن الناس بأس ومظالم البابوات .

---

(١) الوطن عدد الجمعة يوم ١٠ / ٤ / ١٩٨٧ .

من جهة أخرى ظهر تيار يقول أن الحياة مادة ولا شيء وراءها. وقال: وفي ظل الظروف التي كان العلماء يحرقون فيها في أوروبا كانت بلاد الإسلام تزخر بالعلم والمعرفةوتشهد بذلك النصوص والواقع العملي، إلا أن الاستعمار الأوروبي حمل معه إلى المنطقة العربية نظرية فصل الدين عن الدولة على الرغم من أن بلاد الإسلام لا علاقة لها بالسبب الذي أدى إلى هذا الفصل، وقال ان أوروبا أنشأت جيلاً من المثقفين على أساس النظام العلماني، وما كان يراد للبلاد العربية خيراً بذلك فقد تحول الأمر إلى عداء للإسلام وتشريعاته. وفند البهنساوي هذه الحجة بقوله أن كل ما ورد في القرآن والسنة فيه خير للناس.

كما تطرق لمبدأ الشورى وقال إن الإسلام لم يلزم المسلمين بوسيلة معينة لتطبيق هذه الشورى. وفيما يخص حقوق غير المسلمين في ظل الحكم الإسلامي يقال أن الإسلام لا يكره الناس على أقوالهم وأفعالهم ما لم يتحول إلى عمل مضاد في المجتمع. كما أن الأناجيل لم تورد أحكاماً لمعاملات الناس لذا فإن النصرانيين يتبعون حكم البلد الـذي يقيمون فيه في تطبيق هذه المعاملات. وكان المحاضر بذلك يرد على الدعوة لتطبيق العلمانية حماية لغير المسلمين.

● **الرأي الآخر:**

ثم تحدث د. فؤاد زكريا فقال ان غالبية الحضور يتبنون آراء مخالفة إلى حد كبير إلى ما سيسمعونه مني، وهي فرصة لكي تستمع هذه الأعداد الكبيرة لوجهة النظر المخالفة التي نادراً ما يتاح لها حق التعبير، ومن المفيد للشاب المنضم لأي تيار إسلامي الاستماع لهذا فهذا يساعده على تكوين تفكيره بطريقة ناضجة من خلال المقارنة ما بين الأفكار المتباينة.

وأوضح بعدها أن الإسلام ليس موضوعاً للنقاش أو الدفاع عنه في هذه الندوة، فالإشكالية الأصلية هي أنه توجد جماعات إسلامية تنادي بالتطبيق الشامل للإسلام على كافة جوانب الحياة، والنقاش القائم بين تلك الدعوة ورأي آخر يعارض هذه الدعوة وأن المطروح ليس موقف العلمانيين من الإسلام كدين ...وقال إن كثيراً من المسلمين لا يخاصمون العلمانية ولا يعتبرونها طرفاً مضاداً. إذن فالطرف الآخر في

القضية ليس الإسلام بل الممثلون لاجتهاد أو وجهة نظر معينة فيه.

وتابع د. زكريا قائلاً أن أحداً منا لا يشكك في مجد الإسلام ولا يدعو لمحو صفحة من تاريخه المجيد، إلا أن التاريخ متغير والأوضاع السابقة يستحيل استعادتها. ووصف مصطلح «العلمانية» بأنها كلمة سيئة الحظ لم يخترها أصحابها بل خصومهم هم الذين اختاروه لأناس يرفضون استحداث تجربة معينة. ووصف العلمانية المعاصرة بأنها دفاعية لا هجومية بمعنى أنها ترفض إقامة مجتمع معين بمواصفات يطالب بها التيار الإسلامي، ودعا إلى التفريق بكل وضوح ما بين علمانية أوائل القرن العشرين والعلمانية المعاصرة، فالأولى هجومية إيجابية تدعو لإقامة مجتمع له مواصفات غربية بحتة، أما العلمانية المعاصرة فهي دفاعية لا تقول بمجتمع له سماته وإنما تصد التيار الآخر.

• ضمانات التطبيق:

وتساءل د. زكريا عما إذا كان التطبيق الذي تدعو إليه التيارات الإسلامية للتطبيق الشامل للإسلام سيحقق أهدافه الأخرى المعاصرة والتي تحول بعضها إلى فضائح مدوية وقال لو وضع الإسلاميون ضمانات واضحة ومحددة لما وجدوا علمانياً واحداً يرفض التجربة، على أن تكون بعيدة عن العموميات والشعارات ...لأن الدخول في تجارب والتعثر فيها يكلف الشعوب كثيراً فالنميري قطع من الأيدي والأرجل ما لم يقطع في التاريخ الإسلامي بأكمله.

• مأزق التطبيق:

وأشار المحاضر إلى مأزقين يواجهان تطبيق الشريعة الإسلامية وهي توفير الحد الأدنى من العدالة الاجتماعية حتى لا ترتكب مظالم فادحة. والمأزق الآخر يكمن في تطبيق النصوص، هل يكون حرفياً أو مع الاجتهاد. التطبيق الأول سيتجاهل ظروف العصر ودعوة الإسلام بترك ما يتعلق بشؤون البشر للبشر. كما أن التطبيق الحرفي فيه جمود يعجز عن ملاحقة هذه التطبيقات السريعة والهائلة لعالم يتغير يوماً فيوم. أمام الاجتهاد فإن مساحته ستتزايد ومعنى ذلك الاقتراب من العلمانية، لأن الإنسان فيه

يقوم بالجهد الأساسي .

وانتقد المحاضر في نهاية حديثه الربط بين العلمانية والفكر الغربي ، وقال ان بعض العلمانيين يميلون للغرب ، لكن التعميم غير صحيح ، وأن الصراع بين العقل والنقل عرف في تاريخ الحضارة الإسلامية بتيارات موازية وتسميات مختلفة إلا أن جوهر القضية كان متشابهاً ، لذا فإن العلمانيين هم ورثة ابن الهيثم وابن رشد وابن خلدون ، وهو فكر ليس له علاقة بالفكر الأوروبي المعاصر . كما أن كثيراً منهم تصدوا بقوة للمصالح الحقيقية للغرب من تحالفات سياسية وشركات متعددة الجنسية .. الخ ، وهم يؤمنون بأن الصراعات السياسية والاقتصادية والاجتماعية هي صراعات بشرية بعيدة عن الدين .

● على هامش الندوة

ــ كان الحضور كبيراً مما اضطر منظمي الندوة إلى تأخيرها نصف ساعة في محاولة لأخذ الإذن من المسؤولين للانتقال إلى مدرج المسرح إلا أن الإدارة رفضت مما اضطر كثيرين إلى الجلوس على الأرض أو متابعة الندوة من خارج الصالة .

ــ الميكروفونات كانت معطلة طوال الندوة ، وتم الاستعانة بميكرفون يدوي .

ــ كان الاستياء والغضب بادياً على المستشار البهنساوي وقد استهل كلامه بانتقاد المركزية القاتلة لإدارة شؤون الطلبة .

ــ بدا د . فؤاد زكريا هادئاً طوال الندوة في مواجهة الأصوات التي كانت تعترض كلامه من قبل الجمهور .

ــ طالب أحد الحضور بإهدار دم د . فؤاد زكريا فصفق البعض للدعوة[٢] .

---

(٢) لم يطالب أحد بإهدار دم أحد ، إنما طالب أحد المعقبين أن تكون عنوان مثل هذه المناظرة (هو الإسلام والكفر) . ورد الدكتور فؤاد زكريا وهو منشور هنا لم يتضمن ما يفيد أن الوصف بالكفر خاص به وحده بل قال إن هذا العنوان يعني أن الجماعة الآخرين مثلنا كفار .

تراجع العلمانية

تعقيب نشر في المجتمع يوم الثلاثاء ١٩٨٧/٤/١٤ للأستاذ الدكتور أحمد البغدادي.

إن موقف د. فؤاد زكريا في الندوة وتركيزه على نظام حكم جعفر النميري في السودان يدل على تراجع مبتذل ودليل على أمور كثيرة سنذكر بعضها وذلك بعد أن نقدم الدليل على أن د. فؤاد زكريا لا يرى في الإسلام شريعة تستحق الاهتمام وبالتالي فهي لا تصلح للوقت المعاصر.

في المقابلة التي أجرتها معه مجلة الحوادث بتاريخ ١٩٨٦/١٢/٢٦ يقدم الدكتور فؤاد زكريا الدليل تلو الآخر على رفضه للإسلام كشريعة.

يشبه الدكتور مظاهر الصحوة الإسلامية من حجاب وفوز الجماعات الإسلامية في الانتخابات المختلفة على أنه « جزء من التدهور العربي العام »، وأنا شبهت هذا بانتشار أغاني أحمد عدوية في القاهرة على أوسع نطاق تأتي على المجتمعات أوقات معينة تاح فيها الفرصة بأنواع من التفكير هابطة من حيث المستوى ... ».

ما نقلناه حرفياً من المجلة من كلام الدكتور يعني بما لا يدع مجالاً للشك أن كل من ينادي بالعودة إلى القرآن بما يحتويه من تشريعات نصيّة ومن حلال وحرام يحمل تفكيراً هابطاً، هل هناك قلة أدب مع الله ورسوله أكثر من ذلك؟!

يستمر الحوار وتسأل الحوادث السؤال التالي: « أنت تنتدب الإسلام بدور روحي فقط في حياة الناس وترى أنه من أجل بناء المجتمع العربي الحديث لا بد من استحياء روح العصر وما إلى ذلك؟ ».

د. فؤاد زكريا: هذا شيء بدهي، لأنك عندما تقول تشريعاً معيناً يسري على البشر أو يحكم شؤونه، هذا التشريع لا بد أن يتغير ويتحرك مع التجارب الإنسانية ...

إذن ليس عند الدكتور فؤاد زكريا حرام وحلال ، وقد أجاب الأستاذ سالم البهنساوي حين أورد مثال الزنا ووضعه كجريمة في التشريع الإسلامي ، ووضعه في التشريع العلماني حين اشترط بعض الشروط كالإكراه وتحديد سن معينة ، وإذا تنازل الزوج تسقط الجريمة .

لنتخيل مقولة الدكتور وتطبيقها في حياة المسلمين حيث الزنا ليس جريمة إذا تم الأمر برضا الطرفين ، والشذوذ الجنسي كذلك ، والربا ، وقس على ذلك الكثير من الأمور . هذا ما لم يجرؤ د . فؤاد زكريا على التصريح به في الندوة .

آخر ما نقتبسه من المقابلة السؤال التالي : (الحوادث : إذاً أنت ترى أن مقولة الشيخ علي عبد الرزاق المعروفة في كتابه الإسلام وأصول الحكم ، حول أن الإسلام دين فقط مقولة صحيحة .

د . فؤاد زكريا : « اعتقد ذلك ، نعم » .

ماذا حدث في الندوة ؟

كما قلنا ، لقد أتاح عنوان الندوة للدكتور أن يتجاهل عن عمد وبوعي كامل جميع مقولاته التي طرحها في الحوادث ، فأشاد بحضارة الإسلام ، ولكن ...؟ حيث أخذ يستغل الجانب العملي لسلوك المسلمين وليس للمبادئ التي تضمنتها الشريعة الإسلامية السمحاء وأخذ يزايد على تجربة النميري ، ووصل به الجهل أن اعتبر الاجتهاد مؤدياً إلى العلمانية ...!!! لأن الاثنين يشتركان في عملية استخدام العقل !!! وتبدى للجميع أن د . فؤاد زكريا إما أنه لا يعلم ألف باء الدين الإسلامي إذ أن الاجتهاد ليس عملية كيفية فضلاً عن أنه لا مجال للعقل إذا وجد النص ، وإما أنه قد تراجع عن آرائه في العلمانية التي لا تعترف في الدين بشكل عام وتجعل من العقل والمصلحة البشرية بغض النظر عن المعايير الأخلاقية والدينية فوق كل شيء .

نفس الظاهرة تكررت حين اعتبر د . فؤاد زكريا حركة العلمانية امتداداً لحركة المعتزلة !! ولا ندري هل هو جاهل أم أنه لا يعلم لأن حركة المعتزلة لم تدع إلى فصل الدين عن الدولة فضلاً عن أنها لم تشر لا من قريب أو من بعيد إلى أن التشريع

الإسلامي النصي كنصوص القرآن والحديث لا تصلح كتشريع بشري ، وقد أجاد وأحسن الأستاذ سالم البهنساوي في رده على الدكتور حول هذه النقطة وذلك حين رفض هذا الأسلوب بالمقارنة ، لأنها غير واردة أصلاً .

خلاصة القول أن د . فؤاد زكريا سواء بتبنيه فصل الدين عن الدولة من خلال العلمانية ، أو بأسلوبه الملتوي في تجاهل لب القضية ، وليّه لأعناق الحقائق كي يبرر وجهة نظره ، كلها دلائل تشير إلى الجريمة التي ترتكب بحق الطلبة الذين يقوم بتدريسهم وهم على ضحالة من العلم لا يخفى أمرها على العالمين بأحوال الجامعة .

وكذلك الجريمة التي ترتكب بحق القارئ « لعالم المعرفة » والتي يستشار الدكتور فيما ينشـــر فيها مـن معلومات إذ أنه حتماً سيدس الســـم في العسل، لذلك ليس غريباً ألا نجد كتاباً واحداً لأحد علماء المسلمين عدا الدكتور محمد عمارة ومحمد خلف الله ذوي الاتجاه المماثل وهما ليسا من المحسوبين على علماء المسلمين بأي حال من الأحوال .

ونختتم مقالنا بإيراد ما يقوله الدكتور عصمت سيف الدولة وهو مفكر قومي وليس بإسلامي حول العلمانية تحت عنوان رئيسي هو(النفاق) :

(لأن للعلمانية نظاماً ، وللإسلام نظاماً ، وهما لا يتفقان في أكثر من وجه . ولما كان مصدر مشروعية أي نظام هو القبول العام ، وكان أغلب الشعب العربي مسلمين ، فإن قبولهم نظام العلمانية لا يتحقق ـــ دون إكراه ـــ إلا بالإبقاء على الإسلام ديناً (لله) واستبعاده نظاماً للحياة في الوطن الذي هو (للجميع) لتخلو الحياة العربية لنظام لا يتفق في أكثر من وجه مع الإسلام نظاماً . وهذا هو النفاق طبقاً طبقاً لمعايير الصدق والكذب في مخاطبة شعب عربي) .

ص ٢٤٠ من كتاب (عن العروبة والإسلام) .

د . أحمد البغدادي

جامعة الكويت قسم العلوم السياسية

الفصل الرابع
دور العقل والمنهج العلمي

- دور العقل في التشريع
- بين المنهج الإسلامي والمنهج الأوروبي
- حقيقة المنهج العلمي
- النفاق الحديث



الوحي ودور العقل

سأل سائل عن دور العقل في التشريع ولماذا نلغيه ؟

ونود أن نرد السائل ومن سلك مسلكه إلى أن العقل إنما يستمد الحكم من الأمور التالية :

١ ــ التجارب الحسية على الأشياء المشاهدة والمحسوسة ويدخل في ذلك التجارب في المعامل والمصانع وكذا مشاهدات الطبيعة واستخلاص قوانين الكون وفي ذلك قال الله تعالى : ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ العنكبوت ٢٠ ، وقال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ الأنعام ٩٧ .

٢ ــ العلم المكتسب وما يبنى على المسلمات العقلية والبداهة ، قال الله تعالى : ﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ آل عمران ٧ .

٣ ــ الوحي وهذا فيما لا يخضع للتجارب ولم يكن علماً مكتسباً للبشر حيث أنه يتعلق بأحكام لا مجال فيها للعقل والتجارب ، وقد تمثل الوحي فيما ورد في القرآن الكريم والسنة النبوية الثابتة ، قال الله تعالى : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ الأعراف ٣٥ ، وقال الله تعالى : ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا﴾ هود ٤٩ .

والتشريع من الأمور التي لا تخضع للحواس والتجربة ، فغرائز الإنسان لم يستطع الناس من إدخالها المعامل وتحليلها ومعرفة ما يصلح هذه الغرائزويهذبها ، ولهذا تخبطت

الفلسفات البشرية في هذا الشأن ما بين المذهب الفردي والمذهب الجماعي وكلاهما يظن أموراً على أنها حقائق ثم تثبت الأيام عدم صلاحية هذه الحلول ومن ثم فإن الله قد تكفل بذلك عن طريق الأنبياء والرسل، والعقل يتفهم ما يصله من الرسل والأنبياء ويقيس عليها ويختار **قانوناً لما** سكت عنه الوحي بما لا يعارض وحي الله من قرآن أو سنة.

العقل في الفكر الوضعي العربي

تلقى الأستاذ الدكتور زكي نجيب محمود رسالة نشرها في الأهرام بتاريخ ١٩٨٨/٤/٥ بالعدد ٤٧١٤ تضمنت استفساراً عن عبارة للكاتب المشهور هي [أما وقد نضج العقل **الإنساني**] **وكانت الأسئلة هي**:

(١) ما المقصود بنضج العقل؟

(٢) متى يكون قد نضج؟

(٣) ومتى يكون العقل غير ناضج؟

(٤) متى يمكن الحكم على أساس أن العقل **قد** نضج؟

(٥) هل المقصود بالعقل الإنساني هناعقل **إنسان ما بعينه؟**

(٦) أم عقل مجموعة من **الناس؟**

(٧) أم عقل البشر على الإطلاق؟

ولقد كان جواب الدكتور زكي نجيب محمود في ذات العدد ما نصه:

[لقد كان مجال الحديث هو عن الدين، وما دام الأمر كذلك فلا بد أن ينحصر انتباهنا إلى أمرين، وهما الأمران اللذان يجيء الدين من أجلهماالأول هو العقيدة، **والثاني** السلوك أو القيم التي يريد **الـدين** للمؤمنين به أن يلتزموها في حياتهم. فيها يعرف المؤمن كيف تكون الصلة بينه وبين ربه، والصلة بينه وبين الآخرين، والصلة بينه وبين نفسه. وبالنسبة للدين الإسلامي، فإن العقيدة مدارها التوحيد والقيم الضابطة للسلوك، ويمكن الرجوع فيها إلى الأصلين القرآن وسنة النبي عليه الصلاة والسلام، وإذا ما أشكل أمر لم يرد عنه نص في هذين الأصلين **فمرجع** المسلم فيه هو العقل، ولا فرق بين أن تقول أنه العقل أو تقول إنه إجماع الرأي عند الثقات.

فإذا كان الكاتب الفاضل قد وقف عند الكلمات الخمس متسائلاً ، ماذا يعني النضج العقلي ؟

ففي تلك الحالة الخاصة ، يكون الجواب هو القدرة على تمثيل المبادئ التي نزل بها دين الإسلام والتزامها في استدلالاته العقلية بعد ذلك إذا أراد لنفسه هداية في دنيا السلوك .

فالإيمان في عصر سابق ، لم يكن للناس فيه من نضج العقل ما يمكنهم من تصوره وتمثله ، والمبدأ الذي يوجب أن يكون الدين للناس أجمعين ، فلا ينحصر في فئة معينة من الناس لم يستطع بعض السابقين على الإسلام أن يتمثلوه ، والمبدأ الذي يجعل المساواة بين أفراد الناس مطلقة لا تجعل معياراً لها إلا صلة الإنسان بربه ، فلا درجة الغنى ولا النسب والحسب ، ولا السلطان ولا العرق ولا اللون ولا أي شيء من هذا القبيل يجوز له أن يتخذ أساساً للتفرقة بين إنسان وإنسان ، مثل هذا المبدأ كان يتعذر تصوره لو لم يكن العقل الإنساني قد بلغ درجة من النضج تمكنه من ذلك التصور .

ومرة ثالثة استأذن الكاتب الفاضل في تذكيره بأن مجال القول هو الدين بجانبيه : العقيدة وضوابط السلوك ، وليس هو العلم ، والفن ، حتى يجوز له أن يعترض بحضارات المصريين القدماء ، واليونان القدماء وغيرهما من أمثلة ساقها في تساؤلاته ، واضرب لك مثلاً بما ورد في «سورة الفجر» من القرآن الكريم ففيها سبقت أمثلة من ثلاث حضارات قديمة برعت في الفنون : فقوم « عاد » قد تفوقوا في فن العمارة تفوقاً مكنهم من بناء مدينتهم «إرم » على طراز فريد وهو أن يقيموا مشيداتهم على عمد ، حتى ليشاهد القادم من بعيد ما يظنه غابة من أعمدة حجرية ، وقبيلة « ثمود » التي سكنت وادياً من الصخر الجدب ، تفوقت في نحت التماثيل من صخر واديهم ، وشعب مصر أيام فرعون ، والمقصود هو فرعون الفترة التي ظهر فيها موسى عليه السلام ، فقد برع في إقامة المسلات وغيرها من نواتج الفن التي تعلو إلى السماء وكأنها الأوتاد ، فلو كانت البراعة في الفن وحدها هي التي تميز الشعوب ، لتحتم على الحضارات الثلاث المذكورة أن تدوم ، ولكنها فنيت وكان مرد فنائها هو أنها

لم تستطع أن تقيم بناء الفرد وبناء المجتمع على مبادئ كالتكافل الاجتماعي والتعاطف والتعاون والمساواة .

الحرية بين العلم والدين :

وفي جواب آخر عن الحرية ومجال العلم والدين ، يقول الأستاذ الدكتور زكي نجيب محمود في مقالة يوم ١٩٨٨/١/٢٦ بعنوان : وللحرية شيطانها :

ولكن من حقنا أن نسأله : أصحيح أنه إما علم وإما دين؟ وعن سؤال كهذا ، كان أبو العلاء المعري قد أجاب في بيتين من الشعر ، بما معناه : نعم ، إما هذا وإما ذاك ولا جمع بين الطرفين ، على أنه جعل المقابلة بين العقل والدين والحاصل واحد أن تتحدث عن العقل أو عن العلم ، إذ الأول هو وسيلة الثاني ففي بيتي الشعر اللذين أشرت إليهما ، قال المعري ما معناه : أن أهل الأرض هم أحد رجلين ، فإما أن يكون الإنسان ذا عقل وعندئذ يتحتم أن يكون بغير دين (على أساس أن الدين يبنى على إيمان بالقلب) ، وإما أن يكون ذا دين فيتحتم أن يكون بغير عقل ، وهو موقف من المعري لا يسايره فيه كاتب هذه السطور ، إذ يرى هذا الكاتب أن أبا العلاء قد خلط بين أمرين ، هما « الإنسان » في مجموع تكوينه إنساناً ، و « اللحظات » المتفرقة التي تتعاقب عليها حياة الإنسان ، فبينما هو صحيح ــ في رأي هذا الكاتب ــ أن « اللحظة الزمنية » التي يكون الإنسان المقيم منشغلاً فيها بعملية عقلية في علم من العلوم ــ كأن يستدل بمعادلة رياضية من معادلة أخرى أو يجري تحليلات كيماوية في معمله ، هي لحظة محايدة بالنسبة للعقائد على اختلافها لأننا قد نتصور مثل ذلك العالم الرياضي ، أو هذا العالم الكيماوي على أية عقيدة كائنة ما كانت دون أن يتأثر عمله العلمي في لحظته تلك ، ثم تأتي في حياته لحظة أخرى يذكر فيها الله سبحانه وتعالى ، عابداً إياه على طريقة دينه في عبادة الله ، وعندئذ لا يكون علمه ذا شأن ، ومجموع اللحظات بنوعيها هو « الإنسان » ، إذن فليس صحيحاً أن « الإنسان » إما ذا عقل علمي وإما ذا دين ، بل الصحيح هو أن في الإنسان الواحد يلتقي الدين والعلم ، ولا ينفي ذلك أن يكون لكل جانب منهما لحظاته .

وأعجب ما شئت وما استطعت من عجب أن يطول الزمن بهذه اللعبة الخبيثة من شيطان خبيث أراد أن يخاصم بين الإنسان وعقله، فنجح فيما أراد نجاحاً قد اتسع حتى حمل الكثرة الكاثرة ولم ينج من براثنه إلا نفر قليل لمعت عقولهم فأضاءوا الطريق لمن شاء السير على هدى وكان ذلك النفر القليل في ركونهم إلى « العقل » يبدون لمن لا يعلم، أنهم هم الشياطين الذين غلظت قلوبهم ويبست فلم تعرف طريقها إلى الإيمان، ولقد شهد عصرنا من هؤلاء الأعلام الهداة، من وضع يده على المفتاح السهل البسيط الذي يحل اللغز القديم ، لغز الحيرة بين عقل وقلب، كأنما هو حتم على الإنسان أن يلقي بزمامه إلى أحدهما دون الآخر، على نحو ما تصور أبو العلاء فيما قدمته إليك عنه وكأنه ليس أمراً تدركه البديهة الفطرية، أن يكون الإنسان إنساناً بقلبه وبعقله معاً، كما أراد له خالقه ــ جلت قدرته ــ أن يكون، ولن يكون بين القطبين شد ولا جذب، إذا ما عرف كل منهما أين مجاله وما هي حدود ذلك المجال، فللعقل مجال « الاستدلال » الذي يستند إلى ركيزة مقبولة حتى ولو كان ذلك القبول مؤقتاً ومأخوذاً على سبيل الفرض، ومن تلك الركيزة يلتمس طريقه إلى نتيجة يستدلها، وذلك هو العقل وحدوده في إيجاز شديد، وأما ما عدا ذلك كله ــ وهو كثير وأكثر من كثير ــ فهو متروك للوجدان بمختلف وسائله، على أن ما يوقع كثيرين في خطأ وخلط، بالنسبة إلى الميدان الوجداني الواسع، الذي يشتمل فيما يشتمل عليه على الإيمان الديني بكل أهميته في حياة الناس، أقول أن ما يوقع الناس هنا في خطأ وخلط، هو أن يروا موضوعات الميدان الوجداني، **مطروحة** أمام رجال التفكير العلمي، فيظنوا بناء على ذلك أنها من « العلوم » ويفوتهم أن يفرقوا بين أن يقبل الإنسان ما تقبله بنبضة مباشرة من قلبه، وقد يكتفي بهذا القبول المباشر، وبين أن يظهر من الناس من يتناول الحقيقة نفسها التي نبض لها قلب من أخذ بها، ليجعلها ركيزة يستدل منها ما أمكنه استدلاله من نتائج، وهي عملية عقلية تجعل من القائم بها رجل علم، بسبب التزامه منهج العلم في عملياته الاستدلالية.

ولا علينا من هذه الفوارق، التي قد يسهل إدراكها وقد يصعب، وحسبنا الآن هذه الحقيقة البسيطة، التي باعد الشيطان بين الناس وبينها حتى لا تقع عليها

بصائرهم، وهي أن للإنسان الواحد مجالين، يتوحدان بتوحده، كما أن له عينين، وشفتين، وذراعين، ورجلين، فلا يقال أنه بسبب هذه الثنائيات قد انشطر اثنين، وليست أهمية إبراز « العقل » وجوداً ووظيفة في الكيان البشري، مقصورة على أهمية « العلم » الذي هو من صنائع العقل، بل أن أهميته لتجاوز ذلك إلى جانب خطير في حياة الناس، ألا وهو « الحرية » فالحرية بأهم معنى من معانيها، هي السيطرة على ظواهر الطبيعة، التي لو تركت مجهولة، لأمكن أن تقف عقبات في سبيل الإنسان، وأما إذا كشف العلم عن قوانينها، انقلبت رهائن ملك يديه، يسيرها كيفما شاء وأينما شاء.

لا، ليس ما نريده لأنفسنا موقفاً شبيهاً بموقف مفستوفوليس إذ هو يقايض فاوست علماً بإيمان، ويندفع فاوست بدافع حبه للعلم، لتمضي به السنون بعد ذلك، ويجيء الأجل المحتوم ــ فيرى كم كانت صفقته مع الشيطان خاسرة، ويأخذ منه الندم مأخذه « ولات ساعة مندم » كلا، ولا الذي نراه في الأمر هو ما رضاه المعري، من أنه إما عقل « أي علم » ولا دين وإما دين ولا عقل، ظناً منه بأنهما ضدان لا يجتمعان مع أن الحق في ذلك واضح أبلج وهو أنهما بالفعل مجتمعان في كل إنسان فرد، وشاهد ذلك هو الإنسان نفسه، إذ يراه أنا مركزاً انتباهه في عملية فكرية استدلالية وأنا آخر موجهاً انتباهه إلى الحق سبحانه وتعالى، نابض القلب بإيمانه الديني، فقوة الانتباه واحدة، كشعاع الضوء، يوجهه الممسك بالسراج إلى ما أراد أن ينصب عليه الضوء ليراه؛ لكن الذي نريده لأنفسنا هما الجانبان معاً، لكل من العقل والقلب مجاله، وفي الإنسان وحياته يلتقي الطرفان، على أن المجالين وإن تجاورا فاعلية وأداء، فقوة أي منهما تضفي قوة على الآخر، وضعف أي منهما يضفي ضعفاً، إنهما كالعينين أو الأذنين، يستقلان ويتعاونان في آن معاً.

لقد كان الفيلسوف الإنجليزي برتراند رسل، من ألمع من شهدهم عصرنا الراهن، وإنا لواجدون في حياته من بعض جوانبها، عبرة ودرساً، فقد كان من **أعظم علماء الرياضة ثم كان من أعظم فلاسفة الرياضة (وقد كنت في مناسبة سابقة** شرحت الفرق بين علم معين وفلسفته) على أن برتراند رسل، إلى جانب المجال

الرياضي ــ علماً وفلسفة ــ قد تعرض لموضوعات عامة لم يجر العرف على إدراجها في زمرة العلوم ، فقد كتب عن « الحرية والسبل المؤدية إلى تحقيقها » و عن « نظام الزواج وعلاقته بالأخلاق » وكتب عن « قوة السلطان بمعنى قوة الفرد في الحياة الإجتماعية ، وأنواعها المختلفة وكتب عن «التربية والنظام الاجتماعي » ، وغيرها من الموضوعات ، مما يدور مدارها حول الإنسان وقيمته وحريته ، حتى لقد أسست اللجنة التي قررت له جائزة نوبل في الأدب ، قرارها على كونه نصيراً للإنسانية وحرية الإنسان ، لكنك إذا تقرأ له شيئاً من هذه الموضوعات التي ناقش فيها الإنسان وحياته ، تبهرك دقة العبارة التي تبلغ عنده غاية ليس وراءها منا هو أبعد منها ، إن العبارة على قلمه تجيء وكأنها حد السيف القاطع فلا لبس فيها ولا غموض ولا زيادة في كلماتها ولا نقصان ، فمحال محال أن تقرأ جملة كتبها برتراند رسل ، وتسأله : ماذا يعني ؟ لأن مفرداته والطريقة التي رتبت بها ، لا تدع مجالاً لسائل يسأله هذا السؤال ، فهل نخطئ التعليل إذا قلنا أن الدقة « الرياضية!» التي درب عليها في مجال الرياضيات ، عالماً بها وفيلسوفاً لها ، قد انتقلت معه على سن قلمه ، كلما تناول موضوعاً إنسانياً عاماً ، فإذا كانت المعادلات الرياضية هي « العقل » تجسدت خاصته التحليلية الاستدلالية في رموزها ، فكذلك كل ما جرى به قلمه في حياة الإنسان ووسائلها بأهدافها وقيمها ، هو أيضاً « عقل » تجسد في كل فكرة معروضة من حيث تصويرها باللفظ الذي يبينها ، ومن حيث استدلالها من مصادرها ، والاستدلال منها ما عساها دالة عليه من نتائج .

وعلى نحو ما انتقلت دقة الفكر مع برتراند رسل ــ من مجال الرياضيات إلى مجال الإنسانيات ، التي قلما تبلغ كل هذه الدقة عند كاتب آخر ، نقول أن مجال العلم ومجال الدين ، وهما اللذان يفصحان عما انطوى عليه الإنسان من « عقل » و « إيمان » وأن يكونا مستقلين أحدهما عن الآخر موضوعاً ومنهجاً ، إلا أن التقاءهما معاً في الإنسان الواحد الفرد ، الذي يحيا بهما معاً ، كما يبصر بالعينين ، ويسمع بالأذنين ، ويتنفس بالرئتين ، يجعل كل جار منهما يشع على جاره من قوته قوة ، ومن ضعفه ضعفاً ، فالعالم في العلوم الكونية ، أياً ما كان موضوع تخصصه العلمي : علم الفلك أو فرع من فروع الفيزياء ، أو علم الكيمياء في أي فرع من فروعه ، أو علم

النبات أو الحيوان ، أقول أن العالم في أي جانب من تلك الجوانب الكونية ، إذا ما حمل بين جوانحه قلباً مؤمناً بالدين ، فيستحيل ألا يزداد إيمانه الديني نوراً على نور ، لأن علمه بأسرار الكائنات هو في الوقت نفسه علم بعظمة من خلق تلك الكائنات ، وبرأها ، وسواها ، وأجراها على سنن منظومة ، هي نفسها السنن (حرف السين هنا مفتوح ، والمعنى هو « القوانين ») ، أقول هي نفسها السنن التي يكشف عنها العلماء ويطلقون عليها اسم « القوانين العلمية » ، وهكذا يزداد الإيمان إيمانية عن طريق العلم ، والعكس صحيح أيضاً ، وهو أن العلم بدوره يزداد علمية عن طريق الإيمان الديني ، لأن هذا الإيمان يحمل في أصلابه قيماً يسلك الإنسان على معيارها ، ومن تلك القيم : أفضلية العلم على الجهل ، فلا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ، إذن فهاهي ذي قيمة دينية واحدة كفيلة وحدها أن تحفز العالم على المضي في علمه مهما لقي في سبيله من مشقة وعنت وشظف في العيش ، ومن قيم الدين أن تكون « أميناً » على الحق ، صادقاً في إعلانه ، فإذا كان من المرجح أن يتصدى لعلمك جاهلون ، فعليك « بالصبر » والصبر في ذاته قيمة أخرى من وعاء الدين ــ وهكذا وهكذا .

على أن هذا التساند بين علم ودين ــ في الفرد الواحد من الناس ، لا ينفي ــ كما قلنا ــ أن يكون لكل منهما استقلاليته في الموضوع وفي منهج النظر ، ومن أبرز الفوارق بينهما ، مما لا بد لنا أن نكون على وعي شديد به ــ هو أن مبادئ الدين ثابتة عند المؤمنين بذلك الدين لأنها في آخر المطاف « معايير » يقاس بها السلوك ليجزي خيراً بخير وشراً بشر ، ولا بد للمعيار أن يحتفظ بمعنى واحد ، وإلا فقد معياريته . فانظر إلى حال الناس وإذا ما كانَ « المتر » ــ مثلاً ــ مختلف الأطوال عند مختلف المتعاملين في سوق البيع والشراء ، وأما « العلم » فهو متغير مع تقدمه في تعاقب العصور ــ لأن عصراً لاحقاً يصحح أخطاء العلم في عصر سابق ، وليس ذلك لذبذبة في طبائع الأشياء لا ، فالضوء هو الضوء في طبيعته ، والكهرباء هي الكهرباء ، لكنها قدرة الإنسان المحدودة ، هي التي تجعله يعلم جانباً من الظاهرة المعينة ويغيب عنه جانب ، فتجيء معرفته العلمية منقوصة ، يكملها خلفاؤه من العلماء) . انتهى .

هذا هو موقف فيلسوف المذهب الوضعي في العالم العربي وهو الأستاذ الدكتور زكي نجيب محمود والذي تلقى عنه الدكتور عبد الله العمر والذي حضر المناظرة لمؤازرة العلمانية كما ذكر ، كما أخذ عنه أكثر العلمانيين العرب . فهل يرجعون إلى دين الله وشريعته كما رجع أستاذهم؟ أم أن منهم من يتمسح في قول النبي ﷺ « أنتم أعلم بشؤون دنياكم » ليزعم أن هذا دعوة إلى العلمانية في التشريع .

الدعوة إلى إسلام كنسي

إن هذه الدعوة هي دعوة إلى إسلام كنسي ، قد نادى بها خليل حيدر ومن سلك مسلكه وهم قلة ، يدعون المسلمين إلى حصر إسلامهم في الشعائر وفصل الإسلام عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والسياسية حيث يقول في مقالة بالوطن المنشور يوم ١٧/١١/ ١٩٨٥ :

(إنني مع الرأي القائل إن مزج الدين والمذهب بالسياسة والاقتصاد والاجتماع والثقافة يعرقل التطور كماً وكيفاً ويسبب آلاماً لا آخر لها بدون مبرر) .

إن عرقلة التطور التي ينسبها إلى الإسلام ، إنما حدثت في أوروبا عندما زعم البابوات أن ما يحلونه في الأرض يحله الله في السماء ، وما يحرمونه في الأرض سيحرمه الله في السماء ، وحرموا على الناس البحث في العلوم التجريبية ثم تحالفوا مع أمراء الإقطاع ضد الشعوب .

وهؤلاء وغيرهم لا يجهلون أن الإسلام جاء لتصحيح هذه الإنحرافات فقد قال الله عن هؤلاء ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ (التوبة : ٣١) ، وقال عن النبي ﷺ ﴿ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ (الأعراف : ١٥٧) .

ولهذا نجد الأستاذ محمد حسنين هيكل يقول في دراسته المنشورة في الوطن يوم

١٩٨٣/٥/٣ : (كانت العودة إلى الدين طلباً لليقين ، حركة طبيعية) ، فيصف العودة إلى الدين أنها لطلب اليقين وأنها أمر طبيعي أي ليست ضد التطور كما يزعم خليل حيدر .

ويعلل هيكل ذلك بقوله : (لم تكن رسالة محمد قاصرة على مجرد العقائد الدينية ولكنها أيضاً كانت ترسم منهاجاً لتنظيم المجتمع بسلوك أفراده ، فالإسلام حدد علاقات الإنسان بربه ، كما أنه حدد أيضاً علاقاته مع غيره من البشر ، وما زال هذا التنظيم الاجتماعي صالحاً للناس في كل زمان ومكان ومن هنا أخذت العقيدة الإسلامية طابعها الشامل المتكامل) .

إن أي منصف يقارن بين كلام الأستاذ هيكل وأقوال خليل حيدر يدرك أن الأخير يلبس على المسلمين دينهم ويحرف في الدين عن بينة ثم يزعم أن رجال الدعوة الإسلامية المعاصرين هم الذين حولوا الدين الإسلامي إلى دين شامل ذا طابع منهجي أيديولوجي ويزعم أنه ينتقد هذا التيار ، ولا ينتقد الدين ذاته ، وهذه مغالطة أو هي في حقيقتها نفاق ظاهر مكشوف لا يخفى على العقلاء .

وجاء بمقولة من خياله يزعم أن الإسلام ليس شاملاً لأمور الحياة بل هو دين شعائر فقط ثم يبني على الكذب والمغالطة نتيجة هي أن المسلمين المعاصرين هم الذين تحزبوا وحولوا الإسلام إلى دين شامل ولهذا فنقده القاسي ضدهم وليس ضد الدين فيقول في ذلك بتاريخ ٨٥/١١/١٧ : (لا نريد التشهير بالأحزاب الدينية ، إن النقد مهما كان قاسياً للصحوة الدينية فهو موجه إلى النشاط العقائدي والسياسي الإنطوائي المبني على الدين المؤدلج ، أي الذي يتم تحويله إلى أيديولوجية شمولية لا إلى الدين عموماً) ، وهو لا يجهل أن التشريعات الواردة في القرآن والسنة عن المعاملات وعلاقات الحاكم بالمحكوم ليست من وضع رجال الدعوة الإسلامية ، ومن زعم ذلك فقد أخرج نفسه من ملة الإسلام بإجماع علماء الإسلام .

إنه بعد هذه المغالطة يتمادى خليل حيدر في الاستخفاف بعقول المثقفين وكأنهم يجهلون دينهم فلا يدركون أنه دين شامل لأمور الحياة ، ولا يدركون أن دعوتهم إلى تحكيمه نابعة من إيمانهم بأنه من عند الله وأنه صالح لكل زمان ومكان كما ذكر

الأستاذ هيكل ، فيزعم خليل حيدر أن المؤيدين لهذا الإسلام الشامل إنما يفعلون ذلك ليصادروا حرية الفكروالديمقراطية ، فلا يكتفي بالتحريف في رسالة الإسلام بل يزعم أن المسلمين منهم مؤيد لشمول الرسالة ومنهم معارض لها وهو لا يجهل أن من فعل ذلك فلا يعد من المسلمين .

دور العقل في التشريع

ما معنى قول النبي ﷺ : **«أنتم أعلم بأمور دنياكم»؟**

يعني أن سلطان العقل خاص بالأشياء التي تخضع للتجارب المادية ، ولهذا يسمى حديثاً منهج الاستقراء ومجال الاستقراء هو الطبيعة . وملاحظة الجزئيات في عالم الطبيعة يتم عن طريق الحواس الخمسة فما خرج عن نطاق الحواس الخمس لا حكم للعقل فيه على أساس من هذا المنهج قامت الحضارة الأوروبية الحديثة بكل ما فيها من صناعة في الطبيعةومن اكتشافات في الكيمياء ، ومن قوانين فلكية ومن اختراعات في جميع المجالات المادية .

وهذا المنهج ينسب إلى « فرنسيس بيكون » ولكنه عند الدارسين لتاريخ الفكر الأوربي ينسب إلى روجر بيكون ، والدارسين للعلوم يرون أن روجر بيكون كان أدق وأعمق في بيان المنهج وفي تطبيقه .

أما موقف الإسلام والمسلمين من هذا المنهج فإن روجر بيكون على خلاف غيره يعترف في صراحة لا لبس فيها ولا إبهام أنه مدين في منهجه للعرب وللحضارة العربية الإسلامية .

وهذه الحقيقة حاول أقوام أن ينكروها ويخفونها فيما مضى ولكن أعلنها بعض المنصفين الأجانب ، فالأستاذ « بريفولت » يتحدث في كتابه (بناء الإنسانية عن أصول الحضارة الغربية) فيقول : (إن روجر بيكون درس اللغة العربية والعلم العربي والعلوم العربية في مدرسة أكسفورد على خلفاء معلميه العرب في الأندلس) ، ثم يقول : (وليس لروجر بيكون ولا سميه الذي جاء بعده الحق في أن ينسب إليها

الفضل في ابتكار المنهج التجريبي فلم يكن إلا رسول من رسل العلم والمنهج الإسلامي إلى أوروبا المسيحية وهو لم يمل قط من التصريح بأن تعلم معاصريه اللغة العربية وعلوم العرب هو الطريق الوحيد للمعرفة الحقة) .

ويقول أيضاً : (لقد كان العلم أهم ما جادت به الحضارة العربية على العالم الحديث ولكن ثماره كانت بطيئة النضج) . إن العبقرية التي ولدتها ثقافة العرب ففي أسبانيالم تنهض في عنفوانها إلا بعد مضي وقت طويل على إخفاء تلك الحضارة وراء سحب الظلام ، ولم يكن العلم وحده هو الذي أعاد إلى أوروبا بالحياة بل إن مؤثرات أخرى كثيرة من مؤثرات الحضارة الإسلامية بعث باكورة أشعتها إلى الحياة الأوروبية .

أما التشريعات في الأمور غير المادية وعلى الأخص ما يتعلق بالنفس الإنسانية ونعني بها أمور الحلال والحرام فلا يملك العقل أن ينشئ فيها حكماً[1] إنما يقتصر دور العقل على فهم التشريعات المنزلة من الله تعالى والتى أبلغها رسل الله إلى الناس ، وفي هذا قال الله تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ الحديد ٢٥ .

ودور العقل في فهم القرآن والسنة النبوية وما فيهما من أحكام وتشريعات يتمثل في أمور كثيرة منها الترجيح بين الأدلة والأخذ بالقرائن وقوة الاستنباط أو ضعفه ولهذا أنشئت المذاهب الفقهية في الفقه الإسلامي سواء كانت مذاهب جماعية كالمعتزلة والخوارج وأهل الحديث وأهل الرأي من الأحناف والمالكية والشافعية والحنابلة ، أو كانت مذاهب فردية كالطبري وابن عطية وابن رشد وابن حزم .

بين المنهج الإسلامي والمنهج الأوروبي :

انه نتيجة أخطاء رجال الدين في أوروبا وتحريمهم التجارب العلمية ، ظهر المذهب التجريبي فقصر العلم والمعرفة على ما يثبت بالتجارب المادية . فالمنهج التجريبي يقف عند الطبيعة ولكنه ليس بالمنهج الإسلامي الكامل لأنه سكت عن أمر آخر من أمور

---

(١) تفصيل ذلك في كتاب « تشريع الله المفترى عليه » للمؤلف (تحت الطبع) .

المعرفة وعهود ما غاب عن الحس المادي أي ما يتعلق بالنفس الإنسانية وما يصلح لها من مناهج للتربية وأيضاً ما يتعلق بأمور الآخرة قد سكت عنها المنهج التجريبي لأنه لا يستطيع أن يثبت أو ينفي فيها شيئاً حيث تخرج عن نطاق الحواس الخمس وهو أداة المعرفة للتجارب المادية.

لهذا فقد اقتصرت أوروبا على العلم المادي أما الإسلام فلا يقف عند ذلك، وإنما يوجه الإنسان إلى مصير آخر للعلم والمعرفة هو الوحي عن طريق رسل الله، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا ﴾ الإسراء ٣٦.

فالسمع والبصر، هما أساس العلم المادي، علم التجربة والملاحظة، أما القلب فهو أساس التربية للنفس الإنسانية التي لا تخضع للتجارب لهذا قال النبي ﷺ « ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب ». إن الله سبحانه وتعالى يوجه المسلم إلى الملاحظة والتجربة، ويوجهه أيضاً للهداية والنور القلبي عن طريق الخلق الكريم، والتقوى، والإخلاص، وحب الإنسانية والمعاونة في الخير، وكل ذلك تقوم به العبادات من صلاة وصوم وزكاة وحج.

فالإسلام يقر المنهج التجريبي الأوروبي في مجال الطبيعة.

والإسلام أوسع نظرة في الجانب العلمي وأدق وأشمل من المنهج التجريبي فإنه يختلف معه اختلافاً جذرياً في مسألة الإرادة والنوايا وفي الأسباب والبواعث وفي اتجاه الغايات والأهداف.

إن أصحاب المنهج التجريبي يقولون العلم لا صلة له بالأخلاق أو العلم لا أخلاقي أو العلم مصدر الإلحاد وإنكار ما وراء المادة ولا شأن له بالخير والشر. ولكن الإسلام يجعل أسس العلم متسعة بالإيمان ومرتبطة بالخير. قال الله ﴿ إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ كما يجعل الله العلم قربى إلى الله وعبادة لله، يقول النبي ﷺ « إن الملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم »، والإسلام يربط العلم بإصلاح الإنسان والمحافظة عليه أي يربط العلم بالأخلاق، قال الله تعالى: ﴿ مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ كَتَبۡنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ

﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾

لهذا لا يمكن أن يكون هناك تعارض بين الإسلام والعلم ، فالتعارض بين الدين والعلم نشأ في أوروبا بعيداً عن المنهج الإسلامي في ظل صكوك الغفران والحرمان في وقت كان المسلمون يبحثون في جميع الأمور روحية أو عقلية أو مادية ، ونشأ عن ذلك الحضارة الإسلامية التي أنتجت أمثال جابر بن حيان في الكيمياء ، وابن الهيثم في الطبيعة ، وأبي بكر الرازي في الطب ، وابن سينا في الطب والفلسفة ، والغزالي في الجانب الروحي والفلسفة وابن خلدون في الاجتماع والتاريخ والبيروني في الطب والفلك والرياضيات ، وصدق الله إذ يقول : ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ المجادلة ١١ .

مزاعم العلمانيين العرب :

زعم أحد العلمانيين العرب أن الإسلام عقيدة وعبادة فقط ، وليس فيه التزام بحكم أو تشريع ونشر في ذلك كتابه قبل السقوط (نعم للمصحف والدين ، لا للسيف والحكم)[١] .

وزعم أن الحكم والتشريع يتولاه العقل وعلته قوله (إن العقل لم يخلق للامتهان وأن مستقبل الوطن ليس ألعوبة بيد الساسة المتسربلين بالدين الحالمين بالسلطة) ، فهو يقبل الإسلام عقيدة ويرفضه حكماً وتشريعاً ص ١٨،١٩ .

أو يدعو إلى رفض آيات الحكم والتشريع الواردة في القرآن ويزعم أنه بذلك يخدم الإسلام ص ٢٣ ، و ٢٤ .

والذين فرحوا بمقعدهم المعادي للإسلام من العلمانيين المتسربلين بالإسلام نفاقاً روجوا لهذا الكتاب ، ففي جريدة الأهالي بعددها ١٩١ في ١٩٨٥/٦/٥ حوار بقلم حسام حافظ نقل عن الكاتب محمد عودة قوله : إن الدولة العلمانية هي العلاج لتمزقات الأمة العربية ويقول : (كيف نطبق إسلامهم في دولة ٨٪ من أهلها أميون ؟

---

(١) كتاب للدكتور الزراعي فرج علي فودة الذي استقال من حزب الوفد لإعلانه المطالبة بما ورد في الدستور المصري من أن الإسلام هو المصدر الرئيسي للتشريع.

ثم يزعم أن الإسلام دين علماني لأن الرسول في غزوة أحد سئل أهو الوحي أم الحرب والمكيدة ، قال : بل الحرب والمكيدة ، وبهذا أقر العلمانية في الحرب السياسية .

وفي العدد ١٨٥ كتب الدكتور رفعت السعيد نداء إلى الدكتور فرج فودة أن يواصل معركته ومعركة الجميع ومعركة مصر كلها ، لأن كتابه قبل السقوط هو أذكى وأرقى ما قرأه بالعربية .

وهؤلاء قد شهدوا على أنفسهم أنهم خصوم للإسلام فالدكتور فرج فودة يرفض الإسلام كتشريع وحكم والله تعالى يقول: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ النساء ٦٥ . كما يقول الله تعالى : ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ المائدة ٤٤ .

أما الأستاذ محمد عودة فيكفي أن يقول كيف نطبق إسلامهم ، وأن يزعم أن الإسلام علماني لنزول النبي ﷺ على رأي الصحابة في تحديد مكان معركة بدر .

ومثله لا يجهل أن قوله (إسلامهم) فيه دلالة واضحة أن هذا القول لا يصدر من مسلم وأنه يضع نفسه في صفوف غير المسلمين بهذا التعبير . ولا يجهل أن أمور الحرب وسائر ما يخضع لتجارب الناس يتركه الإسلام لخبرة الناس والنبي ﷺ يقول في ذلك: «أنتم أعلم بدنياكم» وهؤلاء لا يجهلون أن الأحكام والتشريعات إنما تخاطب الإنسان وتضبط غرائزه عند حدود معينة حتىٰ لا يطغىٰ أحد علىٰ أحد وهذه الغرائز لا تهذبها التجارب المادية كما لا تهذبها الفواحش التي تباح باسم الفن .

حقيقة المنهج العلمي

يوجه القرآن الكريم البشر إلى أن الافتراضات ومناقشة الطبيعة والاحتكاك الذهني والتحاجج بين العقل والتجربة البشرية وبين الكون أمرٌ لا يطلب لذاته بل يطلب للوصول إلى معرفة ويقين مدعم بالأسباب وما يترتب عليها من نتائج ، قال الله تعالى : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ العنكبوت ٢٠ .

إن المثال القيم الذي ضربه نبي الله إبراهيم عليه السلام ليس إلا عملية بين التجريب الواعي للفروض ومحاورتها مناقش ظهور الكوب والنجم والقمر قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ وهكذا ناقش ظواهر الطبيعة في تدرج استدلالي منطقي ولم يجد فيها من عوامل الخلق والقدرة على النفع والضرر شيئاً حسبما قرأت من سورة الأنعام.

وألزم المشركين الحجة بان ذلك الذي يجري في الكون ليس إلا قوانين ونواميس وموجودات وعلاقات لا تأتي إلا من خالق السموات والأرض وما فيهما وصدق الله تعالى إذ يقول: ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ الأنعام ٨٣.

إن المنهج العلمي في مفهومه الصحيح ينبت من الدين القيم ولا يتعارض على هذا النحو مع توجيهات القرآن في جميع مراحل التفكير المعرفة الخاصة باكتشاف الكون وما فيه من أصول وفروع وقوانين ونظم.

غير أن هذا المنهج البشري يقف عند حد تفسير الطبيعة وظواهرها المادية والإنسانية ويعلن أن ميدانه ينحصر عند هذا الحد ووسيلته لا تستطيع أن تعمل خارج هذا المجال أو تنتقل خارج الطبيعة، وهنا يتولى القرآن اكمال الدائرة فيقول الله تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ﴾ فأمور الحلال والحرام والخير والشر والهدى والضلال، لا تعرف من خلالها التجارب البشرية، وما يندرج تحت مدلول المنهج العلمي، بل يؤخذ ذلك من الوحي الإلهي، قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴾ يونس ٥٧ـ٥٩.

ما يخضع للحواس والتجارب فهو ما يختص به البشر ، وفي هذا قال النبي ﷺ فيما يرويه مسلم في صحيحه : « أنتم أعلم بشؤون دنياكم » .

لقد خلطت أوروبا كثيراً بين هذين الأمرين ، فزعم رجال الدين هناك أن الله تعالى خولهم الحكم في كل شيء ، وبالتالي حرموا على الناس ما أحله الله من البحث في أمور الطب والصناعة والزراعة وغير ذلك من شؤون الدنيا ، وظلت أوروبا في هذا الظلام وهذه المظالم حتى القرن الثامن عشر ، فلم يكن هناك حد فاصل بين القوانين الطبيعية التي تتصل بالتجارب وبالعلم التجريبي ، وبين السنن الإلهية التي تضمنت الحلال والحرام والخير والشر . ولهذا انتشر في أوروبا مذهب الشك الذي نادى به ديكارت ، ثم لقي زخماً كبيراً على يد جون لوك ودافيد هيوم من بعده .

والسبب في هذا الخلط ، أن رجال الدين في أوروبا كانوا يقولون للناس أن السيد المسيح قد قال لهم إن ما تحلونه في الأرض يحله الله في السماء وما تحرمونه في الأرض يحرمه الله في السماء ، فظهر ما عرف باسم صكوك الغفران والحرمان ، ولقد نزل القرآن الكريم ليرفع عن الناس هذه الأغلال وليصحح لهم هذه المفاهيم. قال الله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَـٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ﴾ المائدة ١٥.

يوجه القرآن الكريم العقل البشري ألاّ يقف عند حد التقليد أو الاتباع الأعمى بل يجب أن ينتقل بمعارفه عن الطبيعة والإنسان لتكون هذه المخلوقات آيات ودلائل على وجود آخر ليس بالكم نفسه أو بالكيف ذاته . ولقد نجح المنهج العلمي في مجالات كثيرة في الوصول إلى علوم ونظريات وقوانين صحيحة اتفقت مع ما جاء في القرآن الكريم ، وكانت مع الدلائل الأخرى براهين على وجود الله العظيم ، وها هي اكتشافات الجغرافيا الفلكية والطبيعية والكيمياء والرياضيات والطب تعلن كل يوم عن اكتشاف جديد يتفق مع ما جاء في القرآن من آيات ودلائل على أن هذا القرآن ليس من عند البشر بل هو من عند الله الخالق ، قال الله تعالى : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ﴾ النساء : ٨٢ .

فالقرآن الكريم يطالبنا بالمشاهدة وفرض الفروض واختبار صحة الفروض

واستخلاص النتائج وتعميم الأحكام ، وهذا هو نفسه ما توصل إليه العلماء بالمنهج العلمي مع فارق آخر مع أن القرآن لا يستخدم المنهج العلمي وحده في كل المجالات ، لكنه يستخدم المنهج العقلي الخالص والمنهج الحَدَسي والمنهج الرياضي والمنهج الاحصائي والبصيرة ، والآيات لا نكاد نحصيها ، قال الله تعالى : ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ﴿٦﴾ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا﴾ وقال تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا﴾ النبأ ٧ ـ ١٥ والإسراء ١١٢ .

إن النظرة الشاملة إلى الكون وما فيه من علاقات وتفاعل وترابط واتساق وتكامل وتساند ، إنما يعطي النظرة العلمية إشباعاً يقينياً كاملاً إلى وجود منظِّم للكون وهاد له ومهيمن عليه بلا جدال ، وأنه لا وجود للصدفة أو التلقائية أو ما كان يردده الجاهلون قديماً وحديثاً وهو ما أشار إليه القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ الجاثية : ٢٤ .

إن خصائص المنهج العلمي تكشف لنا أخطاء منكري وجود الله .. وعدم اتفاق نظرتهم مع المنطق العلمي الصحيح ، فخصائص هذا المنهج هي :

١ ـ أنه متخصص في الميدان الممكن للمشاهدة والملاحظة والتجريب وهو ميدان الظواهر المادية المحسوسية .

٢ ـ أنه يبحث عن علل الظواهر وغاياتها المحدودة وحركتها وسكونها والقوانين التي تحكمها والعلاقات التي تربطها بغيرها .

٣ ـ يستخدم الاستقراء من الجزء إلى الكل للوصول إلى أحكام تشمل جميع أفراد الظاهرة المدروسة ، وحينما يزعم أولئك الذين لا يؤمنون بوجود الله أن

بدء الكون ووجوده كان لعلة عمياء كالصدفة أو التلقائية أو الدهر أو إلى الطبيعة، فإنهم يرتكبون خطأين كبيرين إذا افترضنا براءتهم من الخيانة العلمية.

أولاهما: أنهم يظلمون المنهج العلمي **باستخدامه** في ميدان غير ميدانه في حالة **استقراءاته** وانفعالاته وفي هذا قال الله تعالى: ﴿أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾ الزخرف ١٩، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ﴾ الإسراء ٣٦.

ثانيهما: أنهم لم يتوصلوا إلى توحيد الكون ككل في وحدة تحتاج إلى تعليل من خارجها ولا يستخدمون المنهج العلمي في التفسيرلينتقلوا به من التشريع إلى التعليل، بل ظلوا عند التشريع، مع أن المنهج العلمي قد مكّن الجميع بتفسيره للظواهر المحسوسة في كل المجالات، والوقوف على تنظيم مقنن متكامل يحتاج ترتيبه على هذا النحو، إلى خالق ليس من طبيعة هذه الظواهر ولا هو مشابه لها .. وهم يعرفون قبل كل مفكر آخر أن الترتيب والنظام والعلاقات لا تنشأ صدفة ولا تلقائية، لكنها تبدأ بنقطة وتنتهي بأخرى ولا محيص من فاعل لذلك ليس كمثله شيء في الأرض ولا في السماء.

غير أن المنهج العلمي يوجه النظر أيضاً إلى حقيقة هامة هي أنه لا علاقة ولا حركة ولا سكون ولا خاصية ولا تماسك بين الظواهر المختلفة في الأرضين والسماء، إلا إذا كانت من قوة أخرى فوق ذلك، فالمنهج العلمي وضع بديهية تقول: (إذا اعتبرنا الكون كله ظاهرة واحدة بسمائه وأراضيه، فلا محيص من تعليل **لوجودها** بعلة موجودة خارجها. كما أثبت المنطق العلمي حديثاً أن الحركة والسكون والتفاعل وكل شيء في الكون، يتحرك بوحدة واحدة وتكامل منظم إلى غاية مقصودة، ومن المحسوس أن هذه الغاية تحرك الكون نحوها بحرية وإلزام، فلو كان ذلك من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً.

ومعنى ذلك كله أن المؤمنين بعدم وجود الله لا يتفقون مع المنهج العلمي من جميع

الجوانب، فهم يستخدمونه ظلماً خارج الكون المادي، ولا يعملون بتوجيهه إلى خارج الكون المحسوس ويعيشون على فكر ميت يقول: (إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت وحيا وما يهلكنا إلا الدهر).

وواضح أيضاً أنهم في موضوع السببية المتفق معه المنهج العلمي في تفسير الظواهر لا يستطيعون إدراك ما في هذا من ارتباط المنهج العلمي وبين كون المخلوقات دليل على الخالق وهو الله تعالى.

حكم الله والنفاق الحديث:

لقد كان أعداء الله قديماً صرحاء في كفرهم وحربهم للأنبياء والرسل سواء تعلقت هذه الخصومة وهذه الحرب بإنكار وجود الله والشرك بالله أو في قبول الدين في العبادة ورده في الحكم والتشريع.

يسجل القرآن الكريم جانباً من حوار نبي الله شعيب مع قومه فيقول الله تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ۚ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ (٨٤) وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٨٥) بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ (٨٦) قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾ هود ٨٤ـــ٨٧.

فنبي الله في عرضه لدين الله لم يفرق بين الشعائر وعبادة الله وبين التشريع التجاري الخاص بالمكيال والميزان وبالغبن والفتن ولا بين التشريع الاجتماعي الخاص بالمفسدين في الدنيا.

وخصوم الأنبياء كانوا صرحاء في الخصومة فلم يدعوا الإيمان بالله واتباع رسوله ثم يحرفون في دين الله تحت مظلة هذا الإيمان الكاذب.

ولكن ثلة من العلمانيين في عصرنا يجيدون النفاق فيتظاهرون بالإسلام، ثم ينقضون إيمانهم بأساليب ظنوا أنها خافية وهي لا تخفى على الصبيان، فزعموا أن الدين شيء والحكم والتشريع شيء آخر لا صلة له بالدين وأن من يطالب بتعديل القوانين لتتفق مع القرآن والسنة متاجر بالدين ويخلط بينه وبين السياسة.

وهؤلاء لا يجهلون أن أنبياء الله لم يفرقوا بين الدين والحكم والسياسة فهل كانوا يتاجرون بالدين أو كانوا متطرفين؟!

فهذا هو موقف نبي الله شعيب يقطع ألسنة هؤلاء.

وأما نبي الله يوسف فقد أعلن في وضوح عدم الفصل بين الدين والسياسة، فكما أن الشعائر التعبدية لله، فالتشريع والحكم لله أي نلتزم فيه بما جاء عن الله تعالى وإلا كنا نعبد غيره من أصحاب النظريات.

والقرآن الكريم يسجل ذلك في قول الله تعالى بلسان يوسف النبي ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ سورة يوسف ٣٨ ــ ٤٠، ولكن باسم العلمانية وباسم محاربة التطرف وباسم العقل والعقلانية ينكر أفراد أن يشارك **مسلمون** في تطهير بلادهم من الفساد عن طريق البرلمان أو عن طريق الأحزاب المسموح بها لكل الفئات وكل المواطنين والعلة عند الحكام المانعين هي أن هذا خلط بين الدين والسياسة.

كما ينادي أفراد بعدم صلاحية الإسلام للتشريع، وينكر تحريم زواج المسلمة لغير المسلم، وينكر أحكام أهل الكتاب الواردة في القرآن الكريم، **ولكن** يغلف ذلك بنقده للحركة **الإسلامية** ولاجتهاد الدعاة فيها وهو ومن يحميه وينشر له يعلم أن كل ما ينكره ورد في القرآن الكريم وليس من اجتهاد الدعاة المسلمين[1].

---

(١) انظر أقوال خليل حيدر وغيره من العلمانيين في كتاب (تهافت العلمانية في الصحافة العربية) للمؤلف.

الفصل الخامس
الحرية ومعاول الهدم العلماني

- صلة العلمانية بالاستعمار
- أخطار إباحة المحرمات
- المعارضة في الإسلام
- الإسلام وتعدد الأحزاب

الحرية ومعاول الهدم العلماني

يتساءل علماني عن سبب أخذ القوانين من الشريعة، وقد ذهب علماء مصر إلى فرنسا وعادوا بالحرية، بينما انزعجت فرنسا من ارتداء ثلاث مسلمات الحجاب في المدرسة واعتبرت ذلك مناهضة للعلمانية بينما يحمل غير المسلمات الصليب ولا بأس في ذلك ويخرج الملاحدة عراة باسم الوجودية.

والسبب الحقيقي في إصرار القوى غير الإسلامية على هذا المفهوم الخاطئ للعلمانية هو خشية عودة الحضارة الإسلامية.

لقد نقل الأستاذ وحيد الدين خان في مقدمة كتابه « المسلمون بين الماضي والحاضر والمستقبل » أن أحد المستشرقين وصف حضارة الإسلام بقوله:

(لقد ولد الإسلام في حي مجهول بمكة في الصحراء العربية ولم يكد يخرج منها حتى غزا الشرقين الأدنى والأوسط بسرعة مدهشة، ثم وصل إلى الأندلس عبر شمال إفريقية وإلى حدود الصين عبر إيران وكانت آخر نقطة وصل إليها الإسلام في أوروبا هي بودابست حيث لا تزال مقبرة جل بابا، بطرازها التركي على ضفاف الدانوب تذكرنا بأن المسلمين وصلوا إلى هذه البقعة النائية، وفي القرن السابع الميلادي أنشئت الأسس السياسية والاقتصادية للإمبراطورية العربية العالمية).

وإذا كانت فرنسا تمنع الزي الإسلامي خوفاً من عودة الحضارة الإسلامية فإن رئيسها ومحكمتها العليا قد التزما الحياد رفضاً لهذه التفرقة بين المسلمين وغيرهم، بينما يوجد رؤساء من العرب الذين يرددون بأنهم مسلمون يرفضون الحجاب سراً وعلانية، فلا يوجد سبب لتمنع تونس هذا الزي في مدارس الحكومة، ولكن المؤسف فعلاً أن يطبق بعض زعماء العرب سياسة الغرب كما هي دون النظر إلى مصلحة الشعوب

العربية الإسلامية حتى لو أدت هذه السياسة إلى إفقار هذه الشعوب فضلاً عن غضب الله الذي يحل بالحاكم والمحكوم .

إن البنك الدولي لا يمنح الدول النامية قرضاً إلا إذا تقيدت بالآتي[1] :

(١) عدم زراعة المحاصيل التي تغطي الاستهلاك المحلي مثل القمح والذرة بدعوى أن قيمة تكلفتها أكبر من ثمن شرائها .

(٢) زيادة الصادرات وتخفيض الواردات .

(٣) إلغاء الدعم الحكومي ، تخفيض الإنفاق العام والحكومي ويشمل هذا تعيين الخريجين .

فإدخال العلمانية في العالم العربي كان على يد الاستعمار ليضمن وجود أتباع له ، واستمرار هذه العلمانية يخدم ذيول هذا الاستعمار ، ولهذا فالعودة للحضارة الإسلامية يعد عملاً مضاداً .

يقول أنا تول فرانس في كتابه (الحياة الجميلة)(أن أشأم يوم في حياة فرنسا هو ذلك اليوم الذي تراجع فيه الفتح العربي الإسلامي لفرنسا أمام همجية الفرنجة سنة ٧٣٢ في معركة بواتيه .

وفي هذا يقول الفيلسوف الفرنسي روجيه جارودي أنه عندما ذكر ذلك في محاضرة له في تونس زمن الاحتلال طردته السلطات الفرنسية الحاكمة في تونس بذريعة أن هذه دعاية مضادة لفرنسا[2].

إن فصل الدين عن الدول في الديار العربية والإسلامية أدى إلى تقسيم المجتمع الإسلامي إلى عدة مجتمعات متصارعة ما بين العربية والكردية والطورانية وظهر الصراع القومي والعنصري والطبقي والطائفي ، وكل ذلك كان قد تلاشى في ظل الإسلام ولهذا

---

(١) نقلاً عن مقال الدكتور يوسف إدريس بعنوان الاستعمار الزراعي نشر في جريدة الأهرام في ١٩٨٩/٦/١٩ .

(٢) محاضرته في الاسكندرية المنشورة في جريدة الأخبار يوم ٢٣/ ٣ ١٩٨٣ وعن كتاب تهافت قبل السقوط الأستاذ عبد الحميد صبح ص ١٢٩ دار الوفاء بمصر .

يرفض أئمة الاستعمار وأذنابهم من العرب عودة الحضارة الإسلامية ويزينون للناس صورة عملاء القوميات في العالم العربي الإسلامي لتظل لهم الزعامة الكاذبة ، كما أن إبعاد الدين عن الدولة والحياة الاجتماعية وحصره في العبادات فقط مع محاربة المتدينين تحت شعارات التطرف أو مناهضة الدولةِ هو من وسائل الدول الاستعمارية لضمان هذا الضعف للأمة الإسلامية[1] ، وقد زينوا للمغفلين من المثقفين أن الفن بأنواعه يملأ الجانب الروحي للإنسان وأصبح الفن غاية تحشد إليه كل القوى وعلى الأخص الفن الهابط الذي يتغذى على الخمر والميسروالمخدرات والفواحش ما ظهر منها وما بطن ، والغريب أن الأبحاث الطبية قد كشفت لهؤلاء عن أضرار كل ما حرمه الله تعالى ولكن عمليات غسيل المخ للشعوب قد أفقدتهم المقومات والموازين العقلية التي نميز بها الخبيث من الطيب حتىٰ صدقوا كل زنيم يقول سأحرر فلسطين.

ولو اخترنا مثلاً اثنين فقط مما حرمه الله لكان ذلك كافياً لاستخدام عقول العرب التي خدرها المستعمرون وأذنابهم، فأكل لحم الخنزير يؤدي إلى الإصابة بالدودة الشريطية والتي يخترق بيضها جدار الأمعاء ويصل إلى الدم والذي ينقله إلى العضلات والى الكبد وإلى المخ وتظهر أعراض الضغط وقد يحدث تورم للمخ يؤدي إلى الوفاة .

وأوروبا التي حرمت تعدد الزوجات وأحلت الفواحش **كلها، تعلم** أن شيوع الفاحشة يؤدي إلى الإصابة بالأمراض الجنسية كالزهري والسيلان والأيدز ، وجرثومة الزهري تصل إلى الغشاء المخاطي وتتكاثر ، كما تدخل في حلة الثدي وتدخل إلى **الشفتين**ومن ثم تنتقل العدوى من التقبيل ، وأعراض المرض تظهر بعد أسبوع من الإصابة به ومن شهرين إلى أربعة أشهر يظهر طفح جلدي متعدد الأشكال وتتضخم الغدد اللمفاوية ، وجرثومة المرض تعمل عملها في الدم حتى يتخذ المرض شكل أجسام كروية أو بيضاوية داخل المخ وتضغط على الأنجسة المحيطة به وتحطم خلايا المخ فيؤدي ذلك إلى تلف مستديم في المخ ويحدث شلل نصفي أو فقدان للتوازن أو

---

(١) انظر الإسلام والعلمانية للدكتور يوسف القرضاوي ص ٢١٨ــ٢٣٦ .

الشلل الكلي أو الجنون أو الوفاة[1].

أخطار الإيدز :

أما أخطار مرض فقدان المناعة المكتسبة (الإيدز) فيشير إليها المؤتمر الدولي الأول المنعقد في ولاية جورجيا الأمريكية لهذا الغرض .

وفيما يلي ملخص لما نشرته الصحافة عن هذا المؤتمر[2].

افتتح أمس الأول الاثنين في ولاية جورجيا في الولايات المتحدة الأمريكية أول مؤتمر دولي حول مرض فقدان المناعة المكتسبة « الإيدز » في ظل إحساس عام بالعجز عن مواجهة هذا المرض ولكن يأمل الباحثون أن يكون هذا العجز مؤقتاً.

وقد أشارت مارغريت هيلكر وزيرة الصحة الأمريكية في كلمتها الافتتاحية إلى أن مرض فقدان المناعة المكتسبة « الإيدز » لم يترك على حد علمنا أحداً من الذين أصابهم على قيد الحياة .

وكانت تعني بذلك أنه لم يتم حتى الآن حالة شفاء واحدة من هذا المرض ذلك أن جميع الذين أصيبوا به توفوا خلال فترة قد تمتد إلى خمس سنوات .

ودعت مارغريت هيكلر الباحثين المجتمعين في أتلانتا « وهم ألفا طبيب وعالم جاءوا من ثلاثين دولة مختلفة إلى إعلان حرب دولية وكاملة على هذا المرض للقضاء عليه .

وتفيد آخر البيانات الصادرة عن مركز مراقبة الأمراض الأمريكي « الذي نظم هذا المؤتمر والذي يهدف إلى تبادل المعلومات الطبية المتوافرة » بأن مرض فقدان المناعة المكتسبة أصاب ٩ آلاف و ٤٠٥ أشخاص في الولايات المتحدة منذ عام ١٩٧٩ توفي منهم حوالي ٤٥٣٣ شخصاً أي حوالي ٤٨ بالمائة من المصابين .

---

(١) الأمراض الجنسية عقوبة إلهية ص ٢٢ وبعض الصحف الكويتية وفي الرأي العام في ١٩٨٧/٨/٦ ، والمجتمع العدد ٨٣٠ ، والبلاغ العدد ٨٨١ ، والأمة القطرية ربيع الآخر ١٤٠٦هـ .

(٢) نقلاً عن جريدة الوطن الصادرة في الكويت يوم ٢٧ رجب ١٤٠٥هـ (١٩٨٥/٤/١٧) .

غير أن نسبة الوفيات بين المصابين بالمرض تتزايد ذلك أنه من بين ١٤٩٧ حالة فقدان مناعة تم تشخيصها خلال الفترة من يوليو إلى ديسمبر ١٩٨٣ توفي ٩٢٢ أي حوالي ٦٢ بالمائة . بينما بلغت نسبة الوفيات من بين الذين أصابهم المرض خلال الفترة نفسها عام ١٩٨١ حوالي ٨٣٪ ومن بين ٢٧ شخصاً أصيبوا بالمرض خلال الفترة من يوليو إلى ديسمبر ١٩٨٠ لم يبق أحد على قيد الحياة .

ولا يزال عدد الذين يصابون بمرض فقدان المناعة المكتسبة يتضاعف كل عام في الولايات المتحدة ، وتفيد الدراسات المستقبلية التي أجراها عدد من علماء الإحصاء في مركز مراقبة أتلانتا بأن أكثر من ٤٠ ألف أمريكي قد يصابون خلال الفترة من الآن وحتى نهاية عام ١٩٨٦ وذلك إذا لم يتم اكتشاف أي وسيلة لعلاج المرض .

و بالإضافة إلى زيادة عدد حالات الإصابة فإن المرض ينتشر أيضاً على نطاق جغرافي واسع كما يمتد ليشمل فئات اجتماعية جديدة . فقد أصاب مرض فقدان المناعة « الذي بدا في أول الأمر أنـه محصور في الولايات المتحدة » ٤٠٠ شخص في أوروبا .

وذكرت مجموعة من الأطباء البلجيكيين أن زائير قد تلحق قريباً بالولايات المتحدة إذ يقضي المرض على حوالي ١٠ إلى ٢٠ حالة جديدة يومياً .

ومن جهة أخرى لم يعد مرض فقدان المناعة المكتسبة مقصوراً على الرجال ، بل أصبح يهاجم الرجال والسيدات دون تمييز تقريباً .

وقال الدكتور جيمس كاران ممثل المراكز الأمريكية لمكافحة الأمراض في المؤتمر أنه من المتوقع زيادة الإصابة بمرض المناعة المكتسبة بين الناس العاديين في ميولهم الجنسية .

وتابع الدكتور كاران قائلاً : من الواضح الآن أنه مثل الأمراض الأخرى التي تنتقل جنسياً يمكن لفيروس « الإيدز » أن ينتقل بسهولة إلى الناس العاديين جنسياً بالإضافة إلى الشاذين جنسياً .

وقال أن الزيادة في العدوى أمر « حتمي » على الرغم من أن « الإيدز »

ـــ فقدان المناعة المكتسبة ـــ لن ينتشر بين الناس العاديين بنفس السرعة التي انتشر بها بين الشاذين ويمثل الشاذون ثلاثة أرباع ٩,٠٠٠ حالة معروفة في أمريكا.

وفي سنغافورة دعت وزارة الصحة أمس إلى الهدوء إثر انتشار ذعر بين الممرضات والأطباء وفنيي المعامل في المستشفيات الحكومية بسبب مرض الإيدز «المناعة المكتسبة».

فقد طلبت نحو ٢٠ ممرضة في مركز الأمراض المعدية الحكومي نقلهن بعد سماعهن أن ثلاثة أشخاص حاملين لفيروس الإيدز سيدخلون المركز وذلك حسبما ذكرت مصادر طبية.

وأضافت المصادر قولها أن طبيبين بالمركز قدما استقالتيهما في حين توقف خبراء المعامل في مستشفى حكومي آخر عن فحص عينات الدم التي يخشون أن تكون مصابة بالفيروس.

وفي كندا تنوي الحكومة الكندية شن حملة على مرض نقص المناعة المكتسبة لمنع انتشاره القاتل الذي يتهدد السكان.

وتشمل الحملة إنفاق ما يعادل سبعة ملايين دولار أمريكي على اختبارات الدم وتحذير آلاف الطلبة من انتشار المرض ومراقبة المومسات لمعرفة كيفية انتشار الفيروس المسبب له.

والمرأة الحامل المصابة بفيروس الإيدز يحتمل أن تلد طفلاً مصاباً بالإيدز بنسبة ٥٠٪ وتحدث عدوى الجنين أثناء الحمل أو عند الولادة أو بعدها بقليل كما أن الحمل يزيد من خطر تطور حالة العدوى عند الأم، كما يزيد مرض الإيدز من احتمالات حدوث الإجهاض.

ولا يمكن لهذا الوليد أن يعيش إذ يموت خلال عامين.

وخلاصة ذلك أنه قد ثبت لغير المسلمين بالأدلة الحسية أن لحم الخنزير والفواحش وسائر ما حرمه الله يضر بالإنسان وهذا يؤكد أن تشريع الله الذي أوحىٰ به عن طريق رسله لا يتغير بتغير الزمان والمكان لأنه يوائم بين غرائز الإنسان والتي لا تتغير

ولهذا فشلت شيوعية مازدك في القرن السادس الميلادي وفشلت شيوعية ماركس في القرن العشرين كما فشلت الرأسمالية.

تحرير العقلية العلمانية:

لقد صاغت العلمانية الأوروبية عقل الإنسان صياغة أفقدته عقلانيته، فأصبح لا يرى بأساً في الزنا حتى لو كان مع جارته أو زوجة صديقه أو حتى أخته وأمه بينما لا يقبل هذا العقل الزواج بأخرى عند مرض زوجته أو عدم إنجابها ويفضل أن يجعل المرأة الثانية في حياته خليلة يعاشرها معاشرة الأزواج ولكن لا تسمى زوجة ولا تتمتع بحقوق الزوجية.

بل إن قاضي سانديغو في كاليفورنيا حكم على رجل بالسجن اثني عشر عاماً لأنه اتصل بزوجته بينما أبدت عدم رغبتها في معاشرته، وتفضل قضاء الليل خارج البيت وكانت تهمته أنه اغتصب زوجته[1]، بينما أقر القضاء في تنيسي بمدينة شارلت العلاقة المحرمة بين ماري آن جارتون باس بابنها جيمس باس واعترضت المحكمة على زواجه منها لأنه قد تبين أنها أمه[2] أما الزنا بينهما فغير ممنوع.

المعارضة في الإسلام

ينكر العلمانيون أن الحكم الإسلامي يسمح بالرأي الآخر والمعارضة، وكلمة المعارضة في القواميس اللغوية تعني المقابلة والمدارسة والتفنيد والإتيان بالمخالف والنقد والرفض.

وهذه الكلمة استخدمت في الفكر الإسلامي للدلالة على الخلاف الفكري.

وفي الاصطلاح الأوروبي يرتبط معناها بالديمقراطية حيث يلزم وجود حزب للمعارضة لتكون هناك ديمقراطية.

ولكن الفقيه روبرت دال يؤكد أن اصطلاح المعارضة يصعب تحديده بشكل دقيق، ويكتفي بأن المقصود بالمعارضة هو نقد سلوك الحكومة ومعارضته.

(١،٢) نقلاً عن الوطن في ١٩٨٤/٩/١٣ العدد ٣٤٣٤ السنة٢٣.

والفكر الإسلامي لم يهتم بوجود أحزاب تقوم بدور المعارضة إنما اهتم بالتصور الإسلامي لنظام الحكم ولشخص الحاكم ، لأن منطق تبادل الأدوار في الحكم بين الأحزاب أو بين الحكومة والمعارضة ليس هو الهدف من المعارضة في الإسلام إلا السعي لطلب السلطة والحكم غير مرغوب في الإسلام لقول النبي ﷺ : « إنا لا نولي هذا الأمر من طلبه أو سعى إليه » .

ولهذا انصبّ دور المعارضة في التاريخ الإسلامي على تطبيق التصور الصحيح للإسلام وليس دورها هو طلب السلطة بل حرية إبداء الرأي عن مفاهيم الإسلام للنظام السياسي والاجتماعي ، ومن ثم فإن محاولة إحلال أو استبدال تلك المفاهيم بأخرى غيرها يحول بينها العديد من العوامل منها[1] :

(أ) أن الشريعة بأوامرها ونواهيها موجهة إلى الحاكم والمحكوم على السواء[2] ومن ثم فإن ذلك التصور الغربي لمصطلح المعارضة الذي يقوم على انقسام الحياة السياسية بين طرفين أحدهما يقوم بدور الحكومة والآخر يقوم بدور المعارضة ، يواجهه التصور الإسلامي الذي يصير فيه الفرد حاكماً ومحكوماً في آن واحد حيث أن كل فرد «راع » وكل فرد مسؤول عن « رعيته » . ومن ثم فإن المعارضة ليست « دوراً » أساساً بقدر ما هي موقف يتخذه الفرد بغض النظر عن كونه حاكماً أو محكوماً ـــ متى ظهرت دواعيه الشرعية الممثلة أساساً في القيام بالشورى ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فالمؤيدين للحاكم واجبهم الشرعي معارضته لتصحيح الخطأ.

(ب) النظرة العضوية المسيطرة على التصور الإسلامي للوجود السياسي والاجتماعي والتي من أهم آثارها أن يكون لكل عضو في الجسد الاجتماعي والسياسي

---

(١) نقلاً عن « المعارضة في الفكر السياسي الإسلامي » للدكتورة نيفين عبد الخالق ص ٢٩ـــ٣١ ط الأولى ١٩٨٥ بمصر .

(٢) لهذا فإن الشريعة الإسلامية ليست بها أحكام للقانون العام وأخرى للقانون الخاص كما هو الشأن في التشريع الوضعي لأنه في الإسلام يجب أن تتقيد الحكومة أو السلطة العليا بما يتقيد به الأفراد في أعمالهم إلى حد كبير . انظر : د . مصطفى كمال وصفي ، مصنفة النظم الإسلامية ص ٢٢٢ مكتبة وهبة بالقاهرة سنة ١٩٧٧ .

وظيفته التي يؤديها والتي لديه الصفات والمؤهلات الكفيلة بتمام تأديتها ، لذلك وجدنا الفكر الإسلامي عموماً يتجه إلى وضع الصفات والمؤهلات المطلوبة في كل عضو يقوم بوظيفة معينة في الكيان السياسي والاجتماعي الإسلامي ، فوجدنا الفكر السياسي ينصب حول شروط وصفات أعوانه .. وهكذا ، ومن ثم فإن الاتجاه نحو وضع الشرائط والصفات يصير هو أهم ضامن لتمام تأدية العضو لوظيفته وبحيث يصبح فقد هذه الشرائط بمثابة فقدان للأهلية والصلاحية التي تكفل للعضو البقاء في وظيفته .

ومن هذه النظرة العضوية أيضاً انصب اهتمام الفكر السياسي الإسلامي ودورانه حول مركز « القيادة » وصفات وشروط « القائد » لأنه بمثابة الرأس والقلب من الجسد بصلاحه يصلح الجسد إن كان يعرف توزيع الأدوار إلا أنه لا يعرف ذلك التبادل في الأدوار ، فكل دور له أهله الذين لديهم الصفات والشرائط الكفيلة لتمام تأديتهم لهذا الدور : « فالحل والعقد » هو لأهل الحل والعقد و «الاجتهاد » لأهل الاجتهاد و « الشورى » لأهل الشورى وهكذا .. ومن ثم فلا يمكن تصور تبادل الأدوار إلا إذا تم تصور إمكانية تبادل الصفات والشرائط المطلوبة لتمام تأدية الدور . ومن هذه النظرة العضوية تصير « المعارضة » هي بمثابة التدخل العلاجي لإصلاح ما فسد من حال هذا الجسد ، فهي تعبير عن محاولة الجسد استعادة توازنه .

ومن ثم فإن أي انحراف أو خطر يهدد الكيان المعنوي أو العضوي الإسلامي ، يقابل من الجسد برد فعل للحفاظ على حياته ، وهذا هو ما تفعله « المعارضة » بالنسبة للجسد السياسي للإسلام . وبذلك نستطيع أن نفهم كيف يقود الفرد في الإسلام « بالمعارضة » عن سلطة وولاية مباشرة بما يمكن أن نسميه تمثيراً لحق المجتمع يقوم به الفرد . « فالمسلم ولي المسلمين ونائبهم وممثلهم جميعاً في كل ما يتعلق بتطبيق الشريعة بما له من ولاية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ما استطاع إلى ذلك سبيلا »(١) وهكذا فإن « المعارضة » ترجمتها السلوكية تتمثل فيما يملكه الفرد المسلم من رفع دعوى « الحسبة » دون أن يقال له : « لا مصلحة شخصية لك » بعكس الدعوى في النظم الوضعية العصرية « حيث لا مصلحة لا دعوى »(٢) .

(١) انظر د . مصطفى كمال وصفي ، مرجع سابق ص ٧٧ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٧٧ ودكتورة نيفين عبد الخالق ص ٣١ . مرجع سابق .

وبذلك فإن « المعارضة في الفكر السياسي الإسلامي » عرفت الثبات لالتصاقها بالعقيدة ، ولهيمنة المتغير الديني عليها .

إنه لمن نكد الدنيا أن تتوارى هذه المعاني والمفاهيم وتملأ الكتب والصحف بمفاهيم خاطئة عن المعارضة في الإسلام تزعم خلو صدر الإسلام من الرأي الآخر ونكتفي بما رواه البخاري ومسلم أن مروان بن الحكم أراد أن يخطب خطبة العيد قبل صلاته فأخذ أبو سعيد الخدري يجره نحو الصلاة ثم قال له : قد ذهب ما تعلم ، فقال أبو سعيد : ما أعلم خير مما لا أعلم . فقال الأمير : إن الناس لم يكونوا يجلسون لنا بعد الصلاة فجعلتها قبلها[1] .

ويستدل من هذه الواقعة التي وردت في الصحيحين أنه في هذه الفترة لم تكن معارضة فردية فقط بل معارضة جماعية أيضاً بقيام الجمهور وترك المسجد أثناء خطبة العيد التي يلقيها الأمير . ومثلها معارضة بلال الحبشي وأصحابه لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب عندما رفض توزيع أرض العراق حتى رفع عمر يديه إلى السماء وقال : اللهم اكفني بلالاً وأصحابه ، وكان بلال عبداً ثم اشتراه أبو بكر وأعتقه فقال عمر : أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا[2] .

والجدير بالذكر أن معارضة عمر بن الخطاب بشأن أرض العراق قد ظلت أياماً والحوار مستمر بين الطرفين حتى اقتنع المعارضون برأي عمر وأيدته الأغلبية الساحقة لأن توزيع هذه الأراضي على المحاربين في عصره سيحرم الأجيال التي تأتي من بعدهم من هذه الأرض وتصبح حكراً على فئة قليلة جداً هم من حضروا هذه الحروب ثم أولادهم من بعدهم .

ومن قبل ذلك معارضة الشباب للنبي ﷺ في غزوة أحد حيث رأى أن يتحصن المسلمون بالمدينة ، فعارضه الشباب مطالبين الخروج لملاقاة العدو خارج المدينة فنزل على رأيهم ثم كانت الهزيمة التي نزل بها قول الله تعالى :﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ

(١) تهافت قبل السقوط للأستاذ عبد المجيد صبح ص ٢٥١ دار الوفاء بمصر .

(٢) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز : لأبي محمد عبد الحق بن عطية الأندلسي ج ٣ ص ٩٧٣ طبعة دولة قطر رجب ١٤٠٢هـ ، مايو ١٩٨٢ .

﴿ ... ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ ﴾ آل عمران ١٥٩ ، وفي هذا قال ابن عطية : الشورى من قواعد الشريعة وعزائم الأمة ومن لا يستشير أهل العلم والدين فعزله واجب ، هذا ما لا خلاف فيه .

الإسلام وتعدد الأحزاب

يزعم العلمانيون أن الإسلام يرفض الديمقراطية وبالتالي يرفض نظام تعدد الأحزاب ويعدونه نظاماً استبدادياً.

وقد أوضحت من قبل الفوارق بين الشورى الإسلامية والديمقراطية وحاصلها أن الشورى الإسلامية نظام لاختيار الحاكم ومحاسبته وعزله وفي هذا لا يلغي الديمقراطية الغربية ، إنما يختلف عنها في أن تكون سلطة التشريع فيما يوافق القرآن والسنة النبوية ويزيد عليها في مساواته بين الحاكم والمحكوم في التقاضي والمحاسبة والمسئولية .

أما نظام تعدد الأحزاب كاصطلاح في العمل السياسي فلم تعرفه أوروبا إلا في النهضة الحديثة .

وهنالك فرق بين وجود جماعات منظمة تدعو إلى مناهج للإصلاح وبين الحزب كأداة لتنظيم الأفراد للحصول على أكبر عدد من أصوات الناخبين للوصول إلى الحكم ، فإصلاح أصول المجتمع واجب على المسلمين أفراد وجماعات .

أما الدور المنوط بالأحزاب العلمانية فلا يعرفه المسلمون بينما عرفوا الجماعات التي تتبنى مناهج خاصة قد تعارض سياسة الحاكم ، فالخوارج والشيعة والأباضية تعبير عن هذا النوع من المعارضة ولهذا وصفها فلهوزن بأحزاب المعارضة السياسة في الإسلام[١] .

ولم تقتصر المعارضة في الإسلام على نظام الأحزاب والجماعات والفرق ، بل يتولاها الأفراد والجماعات لا بهدف الوصول إلى السلطة وبالتالي تصبح هذه غاية تبرر

---

(١) يوليوس فلهوزن : أحزاب المعارضة السياسية الدينية في صدر الإسلام ، ترجمة عبد الرحمن بدوي ، وكالة المطبوعات بالكويت عام ١٩٧٨ .

إتهام الآخرين بالباطل بل يتولى المسلم المعارضة كواجب ديني عرف باسم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وقد لعن الله من ترك هذا الواجب حسبما ورد في الآيتين ٧٨، ٧٩ من سورة المائدة .

وتعدد الأحزاب ليس دليلاً على التزام الحاكم بنظام الشورى أو الديمقراطية فقد يوجد هذا التعدد في النظام الدكتاتوري التسلطي كما هو مشاهد في أنظمة عربية تزعم التزامها بالديمقراطية ، كما قد يوجد أحزاب الأنظمة الشيوعية ولكنها تصبح أداة لتحسين وجه السلطة القبيح ، ما لم تصبح الحرية حقيقية .

وأيضاً تعدد الأحزاب ليس دليلاً على تفتيت وحدة الأمة وتحولها إلى فرق يلعن بعضها بعضاً ، ولكن قد تظهر هذه الخصلة السيئة وتقترن بهذا النوع من التعدد ، ففي بعض الفترات التاريخية قد تكون الأحزاب أداة لتفتيت وحدة الأمة ، وهذه مناقشة في الممارسة ، وهي موضع اجتهاد واختلاف[1] وليست مرتبطة بنظام تعدد الأحزاب ذاته ، فالمذاهب الفقهية والسياسية والاجتماعية والتي وجدت في صدر الإسلام لم تكن جميعها أداة هدم ، بل كانت تتولىٰ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

لقد كان الخوارج نحو عشرين فرقة ولم يعتبرهم الخليفة الرابع الإمام علي رضي الله عنه أدوات هدم وتفرقة للأمة إلا عند حمل السلاح ، ولذلك حدد حقوقه نحوهم وحقوقهم نحو الدولة بقوله [لكم علينا ثلاث] :

ــ لا نبدؤكم بقتال

ــ لا نمنعكم مساجد الله أن تذكروا فيها اسم الله

ــ لا نمنعكم من الفيء ما دامت أيديكم مع أيدينا[2] .

وعلى الرغم من تكفيرهم له ومطالبتهم بعزله مع كثرة فرقهم فهو لا يبدؤهم بقتال

---

(١) دكتورة نيفين عبد الخالق ، المعارضة في الفكر السياسي الإسلامي ص ٦١ ومصطفى كمال وصفي ، مصنفة النظم الإسلامية ص ١١٨ .

(٢) سالم البهنساوي : الحكم وقضية تكفير المسلم ص ٧٦، ٨٦ ط ثالثة سنة ١٩٨٥ دار البحوث العلمية بالكويت والبشير بعمّان .

إلا إذا حملوا السلاح وبدؤوا بقتال الحاكم ولم يمنع تجمعاتهم في المساجد ولم يمنع حقهم في أموال الفيء إذا جاهدوا مع جيوش المسلمين .

الحركة الإسلامية وتعدد الأحزاب :

لقد ظن بعض المتنسبين إلى الحركة الإسلامية أن الإمام حسن البنا يرى عدم شرعية نظام تعدد الأحزاب ولا يسمح بحرية الرأي الآخر ، وهذا فهم غير صحيح لأقواله في هذه المسألة فيجب أن يجمع الباحث بين جميع ما قاله وكتبه الإمام البنا عن الأحزاب حتى يصبح الحكم في هذه القضية سليماً .

وكل من يتابع ما ينسب إليه في ذلك يجده موجهاً من علمانيين ينكرون حكم الإسلام أصلاً ويتمسحون في كلمة للإمام البنا يحرفونها عن مواضعها ليصلوا إلى نتيجة حددوها سلفاً .

وتكون النتيجة من هذا التصيد للألفاظ أن ينسب خصوم الحكم الإسلامي إلى الحركة الإسلامية الحديثة أنهم سيقمعون الرأي المخالف ، فيزعم خليل حيدر أنه لو قامت الدولة الإسلامية ستصفي جسدياً كل مسلم لا ينضم إلى الجماعة التي تحكم ومن باب أولى لا تسمح لأصحاب الرأي الآخر بالحياة[1] .

وبالرجوع إلى أقوال الإمام حسن البنا تجدها على النحو التالي[2] :

أ ــ ينكر الحزبية التي شعارها الخلاف والانقسام وتسخير الوسائل الشريفة وغير الشريفة للوصول إلى الحكم ، فهذه كانت سمة الأحزاب المصرية التي كانت قائمة في عصره وأفسدت الأخلاق ومزقت الروابط وأضرَّت بالأمة .

ب ــ هذه النظرة خاصة بالأحزاب المصرية في عصره حيث قال عنها : (ليست أحزاباً حقيقية بالمعنى الذي تعرف به الأحزاب في أي بلد من بلاد الدنيا

---

(١) مقالات في جريدة الوطن خلال أغسطس ١٩٨٤ بعنوان الدراسة العلمية للحركة الإسلامية ثم مقالاً في اكتوبر باسم تيارات الصحوة الدينية .

(٢) مجموعة رسائل حسن البنا ، المؤسسة الإسلامية بيروت ١٩٨٣ ، ص ١٤٦،١٤٨،١٦٨،٣٢٦،٣٣٠

فهي ليست أكثر من سلسلة انشقاقات أحدثتها خلافات شخصية) .

واستدل بأقوال فقهاء القانون الدستوري في عصره عن هذه الأحزاب واستشهد بعلوبه باشا في كتابه مبادئ وطنية وبالأستاذ حسن الجداوي في كتابه عيوب الحكم في مصر ، ونقل عن الفقيه الدستوري سيد صبري أنه لم يعد لأغلب الأحزاب السياسية في مصر برنامج يدافع عنه أنصاره ، بل أصبح كل حزب عبارة عن وزير سابق له أنصاره ومريدوه ولهذه النتيجة أهميتها فإن الانتخاب لن يقوم على المفاضلة بين البرامج ... وستكون الانتخابات شخصية لا حزبية بالمعنى المفهوم لدى الشعوب الغربية ، وبديهي أن بقاء الأحزاب على هذا المنوال يقسم البلاد شيعاً وأحزاباً ويثير الشقاق والمنازعات بين الأفراد والأسر بلا سبب مفهوم ولا أساس معقول .

جـ يعلل الإمام البنا فكرته بأن الوفد تكون من الأمة كلها للمطالبة بجلاء الإنجليز واستقلال مصر عن طريق المفاوضات .

ثم تفرع عنه حزب الأحرار الدستوريين للخلاف في أسلوب المفاوضات ، ثم انتهت المفاوضات بأساليبها ونظمها وانتهت مهمتها وتكون حزب الشعب لإيجاد نظام خاص ودستور خاص ، وقد انتهى هذا الدستور وذلك النظام بأشكاله وأوضاعه ، فانتهت مهمته هو الآخر ، ثم تكون حزب الاتحاد لموقف خاص بين الملك والأحزاب وانتهت هذه الظروف وتجددت ظروف أخرى تستدعي مناهج وأعمال فلا معنى لبقاء هذه الأحزاب ص ١٦٧ ولأن مصر بلد محتل فيجب تجميع القوى للنضال من أجل الاستقلال والإصلاح الداخلي ص ٣٢٧ .

د ـــ أعلن في المؤتمر الخامس سنة ١٣٥٧هـ ١٩٣٨ م بمناسبة مرور عشر سنوات على قيام جماعة الإخوان المسلمين ، أنه منذ عام طلب الإخوان من رؤساء هذه الأحزاب أن يطرحوا هذه الخصومة جانباً وأن ينضم بعضهم إلى بعض لتحقيق الهدف الذي قامت الأحزاب من أجله حينذاك وهو تحرير وادي النيل من الإنجليز وأعلن أن الإخوان يفرقون بين حرية الرأي والتفكير والشورى

والنصيحة وهو ما يوجبه الإسلام وبين التعصب للأحزاب سالفة الذكر والعمل الدائب على توسيع هوة الإنقسام في الأمة .

هـ ــ هذه النظرة الخاصة بالأحزاب سالفة الذكر وبظروفها المشار إليها جعلته يوجه رسالة مطولة إلى رئيس الحكومة وإلى البرلمان وإلى رؤساء الهيئات الشعبية السياسية والوطنية والاجتماعية وإلى موجهي الجماهير وإلى كل محب للخير والرسالة بعنوان [مشكلاتنا في ضوء النظام الإسلامي]ولقد جاء فيها ما يتعلق بالحزبية والانتخابات أن يعدل قانون الانتخابات بما يضمن الآتي :

١ ــ وضع صفة خاصة للمرشحين فإذا كانوا ممثلين لهيئات فلا بد أن يكون لهذه الهيئات برامج واضحة وأغراض مفصلة يقوم على أساسها المرشح ، وإذا لم يكونوا ممثلين لهيئات فيجب أن يكون لهم مناهج إصلاحية تؤهلهم للتقدم للنيابة عن الأمة وأكد أن [هذا المعنى مرتبط إلى حد كبير بإصلاح الأحزاب في مصر وما يجب أن يكون عليه أمر الهيئات السياسية ص ٣٣٠] .

٢ ــ ضرورة وضع حدود للدعاية الانتخابية بحيث لا تتناول الأسر والبيوت والمعاني الشخصية كما كان متبعاً من قبل لتدور الدعاية المناهج والخطوط الإصلاحية مع وضع عقوبات لمن يخالف ذلك .

٣ ــ

دعا الإمام البنا إلى الأخذ بنظام الانتخاب بالقائمة حتى يتحرر النواب من ضغط الناخبين ومطالبهم الشخصية وتحل المصالح العامة محل المصالح الشخصية وتكون المنافسة حول مناهج للإصلاح والمعروف أن الانتخاب بالقائمة أنسب للأحزاب والهيئات ذات البرامج ومن ثم فالإمام البنا يدعو إلى إصلاح نظام الأحزاب في مصر وذلك لا شأن له بإنكار تعدد الأحزاب[1] ، ولهذا تراه يرد على من طالب باتحاد حزب (مصر الفتاة) مع جماعة الإخوان فيقول : [ليس أجمل من الوحدة والتعاون على الخير ولكن من الأمور ما ليس يفصل فيه إلا الزمن وحده .. وإنه ليسرنا أن يوفق كل عامل للخير وإلى الخير ..

بقي أن موقف الإخوان من مصر الفتاة في قضية تحطيم الخانات فقد ألقى الإخوان تبعة

---

(١) يؤكد إبراهيم زهمول في كتابه الإخوان المسلمون ، أوراق تاريخية ص ٢٠٧ أن موقف حسن البنا هو تجميع الأحزاب في جبهة وطنية واحدة ونشر الوثائق الخاصة باعتراض الإخوان على حل الأحزاب .

ذلك على الحكومة لأنها هي التي أحرجت شعبها المسلم .. وتعتقد أن هذا التحدي لم يحن وقته بعد ولا بد من تخير الظرف المناسب واستخدام منتهى الحكمة فيه وإنفاذه بصورة أخف ضرراً وأبلغ في الدلالة على المقصود] ص ١٤٨، ١٤٩ .

وخلاصة ذلك أن الحركة الإسلامية لا تحرم نظام تعدد الأحزاب إذا كان للتنافس في الخير وإصلاح الأمة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لأن كل هذه من واجبات المسلم وليست فقط حقاً من الحقوق .

وأنه تجب التفرقة بين نظام تعدد الأحزاب وبين الممارسات الخاطئة لبعض الأحزاب أو لأكثرها ، كما يجب التفرقة بين النظام الديمقراطي ، أو الشورى الصحيح وبين استخدام الديمقراطية أو الشورى كأداة لاستمرار الحكم الاستبدادي والذي يصبح فيه الحزب ليس حاكماً بل يكون قفازاً في يد المستبد يضرب به من يرده إلى العدل وإلى الطريق المستقيم .

وكما يوجد من الأفراد من هو شياطين الإنس وفيهم قال الله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ الأنعام ١١٢ ، فإنه يوجد من الجماعات والأحزاب من هم حزب الشيطان الذين يتبنون الإلحاد والإباحية وفيهم قال الله تعالى : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ المجادلة ١٩ ، فالعبرة بالمناهج التي تتبناها الأحزاب والجماعات والأفراد ومدى انحرافها عن القيم الإسلامية وليست بالشكل الذي يتسمى به هؤلاء حزباً كان أو جماعةأو هيئة أو جمعية .

والذي يلفت النظر أن العلمانيين عامة والشيوعيين خاصة يرفضون حكم الإسلام ولكنهم لا يعلنون ذلك ويبحثون عن كلمات عن أقوال رجال الحركة الإسلاميةليثبتوا

أن الحركة الإسلامية ترفض حرية الأشخاص والجماعات وذلك للوصول إلى ادعاء أن الإسلام يرفض ذلك .

وهؤلاء لا يجهلون أن الحركة الإسلامية في مصر والسودان وباكستان وتركيا وأندونيسيا والأردن وغيرها قد تحالفت مع الهيئات والأحزاب غير الشيوعية لمقاومة الحكم الاستبدادي والوصول إلى حكم ديمقراطي لأنهم على يقين أن النظام الديمقراطي الصحيح الذي يجعل الرأي للأغلبية السبيل الطبيعي للحكم بما أنزل الله لأن هذه الأغلبية مسلمة ، ولن ترضى بغير شريعة الله وخطأ البعض لا يعم الجميع .

والإمام المودودي يؤكد أن كل فرد في المجتمع الإسلامي له حق في الخلافة ونصيب منها ، وهذا لا يتأتى إلا عن طريق الانتخابات الحرة وحرية تكوين الجماعات والأحزاب[1] .

والبيان الصادر عن مكتب الإرشاد العام والمصدق عليه من الهيئة التأسيسية للإخوان المسلمين في مصر والمنشور في مجلة الدعوة بتاريخ ١٩٥٢/٧/٢٧م وكذا الآخر بتاريخ ١٩٥٢/٨/٢ م عن الإصلاح المنشود أي بعد قيام الثورة بأسبوع ، تضمن المطالبة بالإصلاح الدستوري وبالديمقراطية الصحيحة وبإلغاء الأحكام العرفية والقوانين المنافية للحريات وإعادة بناء الحياة البرلمانية[2] .

وفي يناير ١٩٥٣ م عندما صدر قانون حل الأحزاب ولم يطبق على الإخوان المسلمين أجاب المرشد العام في حديث الثلاثاء عن سؤال صحفي بشأن حل الأحزاب قال : (إنما أكلت يوم أكل الثور الأبيض) ، وفي ١٩٥٤/٥/٤ م أرسل خطاب إلى رئيس الوزراء بضرورة إعادة الحياة البرلمانية[3] .

وقد يشذ البعض فيؤيد الطغاة بدعوى المصلحة والإسلام بريء من ذلك فهو لا يكتفي بشرف الغاية بل يفرض شرف الوسيلة وقد حذر الله من هذا المبدأ اليهودي قال تعالى : ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾ آل عمران ٧٥ .

(١ و ٢ و ٣) صفحات من التاريخ للأستاذ صلاح شادي ، ص ٣٤٧ و ٣٧٠ والإخوان المسلمون ، إبراهيم زهمول ، ص٢٠٧ .

الفصل السادس
الاسلام والمشكلة الاقتصادية

- حقوق المجتمع والملكية الفردية
- موجز أحكام العمل والعمال
- العودة الحتمية إلىٰ دين الفطرة.



الإسلام والمشكلة الاقتصادية

تحتل المشكلة الاقتصادية مكان الصدارة في النظام الاجتماعي، فظهرت في العصر الحديث نزعتان متناقضتان في الظاهر تختلف كل منهما حول النظرة إلى المال وإلى العمل والانتاج.

النزعة الأولى تمثلت فيما عرف بالمذهب الفردي أو الرأسمالي وتقوم على أساس أن الفرد هو الغاية من النظام الاقتصادي وبذلك يجب أن تُمنَع الدولة من التدخل في الشؤون الاقتصادية لتترك الحرية الكاملة للفرد بتحقيق أكبر قدر من المنفعة، وهذه المنفعة في نظرهم لا تتعارض مع مصلحة الجماعة لأن مصلحة الجماعة تتحقق من خلال مصالح الأفراد.

أما النزعة الأخرى التي تناهض الاتجاه الفردي فيمثلها المذهب الجماعي ويتمثل في فلسفة كارل ماركس الذي قال أن كل نظام اجتماعي يحمل في ثناياه بذور فنائه وأن المحرك الرئيسي للتاريخ البشري هو الصراع بين الطبقات وأنه لذلك فالنظام الرأسمالي يحمل في ذاته بذور فنائه بالصراع بين الرأسماليين والعمال وهو صراع ينتهي حتماً في نظره بزوال الرأسماليين وانتصار العمال، وهذه النتيجة حتمية تاريخية في نظريته، كما يرى أنه عند انتصار العمال ستلغى الملكية الفردية ويتحول الشعب كله إلى قوى عاملة ويصبح الانتاج للمجتمع كله أي للدولة، ولا يجادل أحد من المنصفين في أن الواقع قد أثبت فشل هذين النظامين، ولهذا حاول كل نظام أن يدخل إصلاحات بل وتغييرات جذرية في نظريته.

الإسلام قد وضع قواعد ثابتة تحكم المال والعمل والإنتاج وهو لم يأخذ باتجاه المذهب الفردي الذي يطلق الحرية الكاملة للملكية الفردية، كما لم يأخذ بالنظام

الجماعي الذي يلغي الملكية الفردية ويحولها إلى ملكية عامة أي ملكية للدولة لأنه سابق في الوجود عليهما.

فالملكية في الإسلام لها مفهوم خاص يختلف عن النظامين وهذا المفهوم قد جاء به القرآن الكريم والسنة النبوية قبل ظهور المذهبين بخمسة عشر قرناً من الزمان، فالنظام الإسلامي أنشأ طبيعة مزدوجة بين الفردية والجماعية، فالملكية فردية من ناحية حق الرقبة والتملك، وجماعية من ناحية التصرف والإنفاق والاستغلال.

فبعض الآيات القرآنية تضيف الملكية إلى الناس كما في قوله تعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ آل عمران ١٨٦ وقوله ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾ النساء ٥، وبعض الآيات تضيف الملكية إلى الله تعالى كما في قول الله تعالى: ﴿وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ النور ٣٣ وقوله عز وجل: ﴿وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ الحديد ٧.

وهذه الطبيعة المزدوجة للمال تجعل من إضافة الملكية إلى الله قيداً على الملاك بأن حريتهم مقيدة بأهداف الشريعة الإسلامية. أما إضافة المال إلى الفرد فهي استجابة للغريزة التي يولد بها الأفراد واستشعار لمسؤوليتهم لحفظ الأموال وتنميتها وذلك في حدود النظام الذي جاء به الإسلام لهذه الملكية.

حقوق المجتمع على الملكية الفردية:

لقد وضع الإسلام ضوابط للمال والإنتاج وذلك لصالح الفرد والمجتمع، وهذه الضوابط يمكن حصرها في الآتي:

١ ــ يجعل الإسلام العمل هو سبب الكسب والرزق .. قال الله تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ النجم ٣٩، وقال تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ﴾ النساء ٣٢.

لهذا حرم الله الكسب الذي لا يصاحبه عمل مشروع وأخذ المال بالباطل، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا

إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ البقرة ١٨٨ .

وحرَّم الله الربا لأنه مال أتى بغير عمل فهو كسب غير مشروع . قال الله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟ ﴾ البقرة ٢٧٥ .

٢ ــ وحرَّم الإسلام الخمر والميسر والمقامرة لأنهاتضر بالمجتمع وهي كسب غير مشروع . قال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ المائدة ٩٠، ٩١ .

٣ ــ يمنع الإسلام التعسف باستعمال حق الملكية لقول النبي ﷺ « لا ضرر ولا ضرار » (أخرجه ابن ماجه نيل الأوطار ج ٥ ص ٧٥) .

وفي تطبيق ذلك روى أبو داود في سننه « أن سمرة بن جندب كان له عضد من نخل في حائط لرجل من الأنصار معه أهله ، وكان سمرة يدخل إلى نخله فيتأذى به الرجل فطلب إليه أن يبيعه فأبى ، وطلب أن يناقله فأبى ، فعرض عليه أن يهبه للأنصاري فأبى ، فقال له أنت مضار ، وقال للأنصاري أي صاحب الحائط اذهب فاقلع نخله » (سنن أبي داود ج ٣ ص ٤٢٨) .

٤ ــ يحرم الإسلام استغلال حاجة المحتاجين أو خداعهم أو الإضرار بهم لهذا حرَّم الربا كما حرم الاحتكار . قال النبي ﷺ « من احتكر على المسلمين طعامهم ضربه الله بالجذام والإفلاس » (رواه ابن ماجه نيل الأوطار ج٥ ص ٣٣٤) كما قال « لا يحتكر إلا خاطئ » (رواه أحمد ومسلم) .

٥ ــ حرم الإسلام استعمال طرق غير مشروعة لتنمية الملكية كالغش أو الخداع أو

التدليس أو إخفاء العيوب فقد روى الجماعة إلا البخاري والنسائي أن النبي ﷺ « مر برجل يبيع طعاماً فأدخل يده فيه فإذا هو مبلول فقال: من غشنا فليس منا ».

٦ ــ والميراث ليس رزقاً بغير عمل لأنه من عمل الميت فأصبح ورثته هم أصحاب الحق فيه.

٧ ــ فرض الإسلام الزكاة في أموال الأغنياء لصالح الفقراء وكلف الدولة بتنظيم هذا الحق وتحصيله وصرفه في مصارفه الشرعية ولهذا قاتل الخليفة الأول الذين امتنعوا عن أداء الزكاة ولو لم يرتدوا عن الإسلام، وأعلن الحرب عليهم مع المرتدين في مقولة مشهورة (والله لأقاتلن من فرّق بين الصلاة والزكاة).

٨ ــ كما فرض الإسلام التكافل الاجتماعي وجعله حقاً على الملكية الفردية ولهذا وزع النبي ﷺ أموال الفيء على المهاجرين لأنهم فقراء، مع أن الأنصار قد شاركوا في الفيء، وقد علل القرآن الكريم حرمانهم منه بقول الله تعالى: ﴿ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ ﴾ الحشر ٧.

وبالتكافل الاجتماعي يصبح أفراد المجتمع كالجسد الواحد لما رواه البخاري ومسلم أن النبي ﷺ قال: « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى ».

٩ ــ فرض الإسلام حقاً على كل ما يستخرج من باطن الأرض من كنز أو معادن أو ثروة لقول النبي ﷺ « وفي الركاز الخمس » رواه البخاري ومسلم.

١٠ ــ حرَّم الإسلام تملك أو إنتاج أو تداول السلع الخبيثة، وهي التي حرَّمها الله تعالى باعتبارها تضر بالفرد والمجتمع كالخمر والخنزير، كما حرم استخدام المال في اللهو والفواحش وغيرها من المحرمات، كما حرَّم الإسراف في استعمال الأموال.

١١ ــ كما حمى الإسلام الملكية الفردية وعاقب من يعتدي عليها بغير عذر وذلك

لقوله : ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ المائدة ٣٨ ، إلا أنه مع هذا أجاز نزع الملكية الفردية رعاية لحقوق الآخرين كما في حالات الشفعة والاستملاك لأجل المصلحة العامة « التملك الجبري » (المدخل الفقهي ، الأستاذ مصطفى الزرقا ج ١ ص ٢٢٧) .

وتطبيقاً لذلك نزع عمر — رضي الله عنه — ملكية دور الصحابة المجاورة للمسجد الحرام فلما رفض بعضهم قال « إنما نزلتم على الكعبة وهذا فناؤها ولم تنزل الكعبة عليكم » المدخل للأستاذ مصطفى شلبي ص ٢٠٥ .

موجز أحكام العمل والعمال :

لقد احترم الإسلام الفطرة الإنسانية فجعل العمل هو أساس الكسب كما سبق ذكره وحرم البطالة وإن كانت من الأغنياء ، قال تعالى : ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴾ الإسراء ١٦ ، والعمل قد يكون لحساب الشخص نفسه أو للغير مقابل أجر . وكلاهما قد جعل له الإسلام حدوداً وقيوداً .

فأحل الإسلام العمل والتجارة ونهى عن الكسب الحرام ، قال تعالى : ﴿ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ﴾ النساء ٢٩ وقال النبي ﷺ « ما أكل أحد طعاماً قط خير من أن يأكل من عمل يده » رواه البخاري ، فتح الباري ٢٠٩ . وقد كان من شروط البيعة على الإسلام (ولا تسألوا الناس شيئاً) صحيح مسلم ١٠٤٣ الزكاة ، وابن ماجه ، الجهاد . جامع الأصول ٢٦٤/١ .

واليد العليا هي اليد العاملة إذ قال النبي ﷺ : « اليد العليا خير من اليد السفلى » رواه أحمد والبخاري .

والإسلام يبطل أي شرط في عقد العمل يكون ضاراً بالعامل إذ قال ﷺ : « لا

ضرر ولا ضرار » وقال « شرط ليس في كتاب الله فهو باطل ولو كان مائة شرط » نيل الأوطار للشوكاني ٥/٣٣٠ .

كما يجب أن يكون الأجر مناسباً للعمل ومجزياً . قال تعالى : ﴿ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ﴾ الشعراء ١٨٢ .

ويجب أداء الأجر فور أداء العمل ، قال النبي ﷺ : « أعطوا الأجير أجره قبل أن يجف عرقه » صحيح الجامع الصغير ١/٣٩٤ .

فإذا تخلف رب العمل عن الوفاء بحقوق العمل وجب على الدولة أن تقوم نيابة عنهم باستيفاء هذه الحقوق فالنبي ﷺ يقول كما ورد في البخاري : « ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة ومن كنت خصمه خصمته » وذكر منهم « ورجل استأجر أجيراً استوفى منه ولم يعطه أجره » الفتح الكبير ١/٢٨١ .

فإذا تعطل العامل عن العمل أو توفاه الله وترك أسرة أو ديناً فيجب على الدولة أن تنوب عنه في سداد الدين وكفالة الأسرة ، وقد ورد في البخاري قول النبي ﷺ : « من ترك مالاً فلورثته ومن ترك كلا فإلينا ، ومن ترك ديناً أو ضياعاً فأنا مولاه » فتح الباري ٥/٤٥٨ .

وأخيراً ، فإن نظام المزارعة والمضاربة في الاقتصاد الإسلامي يكشف عن نظرية الإسلام في حق أصحاب المال وحق العمل ، فلا يهدر أحد الحقين ولا يسمح لطغيان أحدهما على الآخر .

والمضاربة أن يكون المال لرجل ويستثمره العامل ولكل منهما حصة في الأرباح ، أما في الخسارة فيضيع جهد العامل مقابل الخسارة في المال .

والمزارعة أن تكون الأرض أي المال لرجل ويستثمرها العامل نظير الاقتسام لناتج الأرض بين الاثنين .

ولكن الإسلام يذهب إلى حماية حق العامل عند ظهور الآفات الزراعية في المحصول حيث يخسر العامل جهده ولا يضار صاحب الأرض إلا بفوات مكسبه كله أو بعضه ، كما أنه في حالات قيام أصحاب المال من وضع أيديهم على مساحات

كبيرة من الأراضي ثم يؤجرونها إلى المحتاجين قد يصاب المستأجر بالضرر عند وجود كساد في الانتاج أو آفات زراعية .

لهذا فالمستأجر لا يضمن للمالك شيئاً عند الآفات أو هلاك الشيء لأنه لا يضمن إلا بالتعدي منه أو التقصير والإهمال البين .

كما أنه يؤثر الإسلام عدم كراء الأرض فالمزارعة أكثر عدلاً من الإجارة والإحسان أن يمنح الغني الأرض التي تفيض عن زراعته إلى الفقير ، فقد روى الخمسة عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : ما كنا نرى بالمزارعة بأساً حتى سمعت رافع بن خديج يقول : إن رسول الله ﷺ لم ينه عنها ولكن قال : « لأن يمنح أحدكم أرضه خير من أن يأخذ عليها خراجاً معلوماً » .

العودة الحتمية إلى دين الفطرة :

إن الإسلام هو دين الفطرة الإنسانية التي فطر الله الناس عليها ، وهو الدين الذي أرسل الله به رسله وأنبياءه بدءاً من آدم ونوح وانتهاءً برسالة خاتم النبيين محمد ﷺ .

قال الله تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ﴾ الشورى ١٣ ، وقال الله تعالى : ﴿ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ آل عمران ٨٤، ٨٥ .

لقد أمر الله بني آدم أن يلتزموا بأحكام هذا الدين لأنه فطرة الله فلا صلاح للإنسان خارج حدود هذا الدين ، قال الله تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ الروم ٣٠ .

إن من هؤلاء الذين لا يعلمون الشيوعيون في فارس قبل نزول القرآن ، فكان

زعيمهم مزدك ينادي بالشيوعية الجنسية حتى لا يتميز ولد عن ولد وبالشيوعية في المال حتى لا يتميز مال عن مال ولا يبقى مال لأحد.

وهذه الدعوة ضد الفطرة التي فطر الله الناس عليها، ولهذا تلاشت وذابت كما تذوب الرواسب التي لا خير فيها وستلحق بها شيوعية ماركس.

ثم كان النظام الإقطاعي والرأسمالي الذي تزعّم نظريته قارون في عهد نبي الله موسى فكان ينكر حثوث الشعب في الأموال التي أسرع الأغنياء، والقادرون، والرؤساء بوضع اليد عليها وزعم أنه كصاحب هذا المال حر في التصرف فيه وفي استعماله في الخير أو الشر دون معقب على ذلك من أحد وحجته في ذلك أن خبرته وعلمه فقط مكناه من تملك الأموال فلا حق لغيره فيها.

ولقد هدم الله هذا البناء الاقتصادي الفاسد وجعل زعيمه عبرة لخلق الله وقص علينا القرآن الكريم ذلك فقال الله تعالى:

﴿ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾

القصص ٧٦ــ٨٢.

إن أكثر الناس لم يأخذوا عبرة مما حاق بالشيوعيين وزعيمهم مزدك ، وبالرأسماليين وزعيمهم قارون ، وذلك لابتعاد هذه الأكثرية عن الدين القيم ، عن فطرة الله التي فطر الناس عليها .

لهذا عادت الرأسمالية مرة أخرى بأشكال متفاوتة وعادت الشيوعية واصطلى القرن العشرون بنيران هذين المذهبين الفردي والجماعي .

لهذا تحول أتباع المذهب الرأسمالي الفردي إلى أنواع من الاشتراكية التي تقترب من الفطرة وتبنوا نوعاً من العدل يقترب من الدين القيم . ثم جاء الدور على شيوعية ماركس ولينين ، فأعلن غورباتشوف زعيم المعسكر الشيوعي إدخال إصلاحات جذرية على هذه الشيوعية عرفت باسم البروستوريكا وهي في حقيقتها ليست إصلاحات في نطاق المذهب الشيوعي بل هي تغيير صريح للمبادئ والمسلمات التي قام عليها هذا المذهب .

فعادت الملكية الفردية ولم يصبح الدين أفيون الشعوب كما زعم ماركس بل أصبح المتدينون مواطنين لهم الحق في التمسك بشعائر دينهم .

ونودي بنوع من الديمقراطية تحول دون احتكار الشيوعيين للحياة السياسية والاجتماعية .

بل تجاوزت المجتمعات في دول أوروبا الشرقية حدود المذهب كلها فأنزلت النجمة الحمراء من الميادين ومن فوق المصالح الحكومية .

وفي بلاد أخرى نزعت الشارة الشيوعية من الأعلام وشطبت كلمة الشيوعية والاشتراكية من اسم الحزب والدولة .

ولكن بعض المتاجرين بالشيوعية في المجتمعات العربية تتنكر لكل هذه التغييرات الجذرية وزعم أنها لا تزيد عن كونها تجديداً لإحلال قيادات شابة محل القيادات القديمة والتي لا تقبل بالتطوير والتجديد[1] .

وقد تناسى هؤلاء أنه من القيادات البارزة في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي

---

(١) عن الأنباء الكويتية في ١٩٨٩/١٢/٣١ م .

السوفياتي نشر الدكتور الكسندر كسيكو نائب رئيس قسم العلاقات الخارجية في الحزب عدة مقالات في مجلة العلم والحياة والتي تصدر في موسكو شهرياً ، وكانت المقالات بعنوان (أصول الستالينية) . .

ولقد أوضح في هذه المقالات خطأ الذين يزعمون أن الاشتراكية التي أرسى قواعدها ستالين ليس لها علاقة باشتراكية ماركس ولينين وأكد أن الخطأ ليس في التطبيق بل في الأصول العقائدية للمذهب ، وقال : (ان من الواضح أن التشويهات التي ظهرت في البنيان ليست ناتجة عن انحراف ستالين عن التصميم الأولي للبناء الشيوعي فحسب بل ناجمة أيضاً عن ابتعاد الفكر الشيوعي النظري عن الحياة وعجزه عن التنبؤ الكامل بالمستقبل) ، ويقول : فالنظرية الشيوعية التي وضعت في أوائل القرن العشرين لا تصلح لأواخر هذا القرن[1] .

الخطأ في النظرية والتطبيق

وأكثر من هذا ، فقد نشر في الاتحاد السوفياتي كتاب (أضواء على التجربة البلشفية ، قراءة جديدة لمؤلفات لينين)[2]

هذا الكتاب الذي نعرض له بشيء من التركيز والاختصار ، مؤلفه الكاتب الروسي فلاديمير صلؤوخين ، استطاع أن يطبع منه آلاف النسخ ، وأخذت جماهير القراء تتناقله علناً ، لأن السلطات ، وفي عصر الغلاسنوست « العلنية » لم تجد غضاضة في أن ينتشر كتاب صلؤوخين ، وإن كان حافلاً بالنقد المرير للتجربة البلشفية في عمومها . ولزعيمها فلاديمير لينين . وهي تدرك بأن ما هو ممنوع مرغوب ناهيك عن أن المؤلف لم يخترع من بنات أفكاره ما ورد في هذا الكتاب الخطير والهام من طروحات ومواقف وتحليل لأحداث ووصف لها يستند على الوقائع والنصوص قبل كل شيء .

---

(١) المرجع السابق عدد ١٩٨٩/١٢/٣٠ م نقلاً عن المجلة الروسية .

(٢) نشر في الأنباء الكويتية في حلقات بدأت بتاريخ ١٩٨٩/١٢/٣٠ .

والجدير بالذكر أن المترجم سلام مسافر قد كشف عن أن التجربة العربية لكتاب لينين المختارات ، والصادر عن دار التقدم في موسكو باللغة العربية ، قد حذف من بعض مجلداته الفقرات التي يعرضها الكتاب الجديد (أضواء على التجربة البلشفية) .

يعترض فلاديمير صلؤوخين الكاتب والروائي الروسي البارز على جوهر الفكرة اللينية التي استندت على أقلية ضيقة وقليلة العدد في المجتمع الروسي ، وأطاحت بحكومة القيصر لتقيم نظاماً يعتبره صلؤوخين نظاماً قمعياً في أسسه الفكرية وفي الممارسة . ويسلط الكاتب الذي يطالب بمحاكمة التجربة البلشفية بكاملها وليس رمزاً واحداً فيها هو ستالين ، يسلط الأضواء على الطروحات اللينية في التعامل مع أوسع الجماهير وعبر استقراء نقدي تحليلي لكتابات لينين ونظراته التي أصبحت دستوراً تحركت عليه عجلات المجتمع السوفياتي الجديد منذ أن استولى البلاشفة بقيادة فلاديمير ايليتش لينين على السلطة ويتحدث عن المذابح الكبيرة التي تعرضت لها روسيا خلال السنوات الأولى للسلطة السوفياتية . ويأتي صدور كتاب صلؤوخين ضمن حملة النقاش والجدل الدائر اليوم في الاتحاد السوفياتي والذي أضاءت البيرسترويكا والغلاسنوست أمامه طريق المراجعة والنقد الحاد ومتعدد الجوانب .

يقول المؤلف : لقد كتب لي أحد القراء أن أفتح المجلد ٣٦ من مؤلفات لينين وأقرأ ما ورد في الصفحة ٢٦٩ من الطبعة الخامسة . وذات يوم ، وفي أثناء اجتماع لهيئة تحرير إحدى المجلات ألفيت نفسي قرب خزانة للكتب وريثما كانت تلقى في الاجتماع الخطب العصماوية ، وتناقش الخطط ، تذكرت ما أوحى لي به ذلك القارئ ، ففتحت بهدوء بوابة خزانة الكتب وتناولت المجد المطلوب ، ولعل زملائي آنذاك ظنوا أنني اعتزم القاء كلمة وأروم التسلح باستشهادات من لينين . أما أنا فقد فتحت على الفور الصفحة ٢٦٩ . لم يكن القارئ قد ذكر لي ترقيم الأسطر لذا اضطررت إلى قراءة الصفحة كلها وأدركت على الفور الأسطر التي قصدها في رسالته ، وقد جاء فيها :

يقول المؤلف : (أنتقل أخيراً إلى الاعتراضات الرئيسية التي انهالت من كل حدب وصوب على مقالي وخطابي ، واستهدفت بصفة خاصة في هذا المضمار شعار

« انهبوا الممتلكات المنهوبة » وهو الشعار الذي مهما أمعنت النظر فيه لا أستطيع العثور فيه على ما يجانب الصواب .. ولئن كنا نستخدم عبارة « مصادرة ملكية مغتصبي الملكية ».

ترى لماذا تجدني أقتبس من هذا المجلد بالذات ؟ ألأنه كان ما وقع بالمصادفة بين يدي ، ليس ذلك فحسب ، إنني وإن لم أكن قد قرأت لينين من الألف إلى الياء ، فقد رجعت بعد ذلك إلى الكثير من مجلداته ، غير أنها لفترة مثيرة جداً وملتهبة الأحداث ، تلك التي تمتد من مارس وحتى يوليو العام ١٩١٨ . أي من الشهر الخامس إلى الشهر العاشر من التربع على سدة الحكم في روسيا التي ألفت نفسها في قبضة البلاشفة بالسهولة التي لم يتوقعوها هم أنفسهم ، على أنها لم تكن بالمفاجأة التامة طبعاً . إذ كانوا يستعدون نظرياً للاستيلاء على هذه السلطة والإمساك بدفة الحكم . فقد حدد لينين سلفاً في مقال : (هل سيتمكن البلاشفة من الاحتفاظ بالسلطة ؟) الذي كتبه قبل انقلاب اكتوبر الكثير من التصرفات والأفعال التي أخذت تطبق عملياً خلال الفترة التي نحن بصددها . ولنقتطف من هذا المقال السابق للثورة موضوعات لينين الرئيسية ، فكرته الأساسية :

ـــ (إن احتكار الحبوب وبطاقة تموين الخبز والسوق الإجباري العام إلى العمل (كلمة « بوفينوست » تعني بالروسية التجنيد أو السوق الإجباري للخدمة ، بينما وردت في الترجمة العربية دار التقدم « فريضة » ! كل هذا يشكل في يد الدولة البروليتارية ، في يد السوفيات المطلقة السلطة ، أعلى وسيلة للجرد والمراقبة « يقصد بذلك جرد ممتلكات ومداخيل المواطنين ومراقبة توزيعها » .. إن هذه الوسيلة للرقابة والإكراه على العمل إنما هي أقوى من قوانين الكونغتنسيون « الهيئة التشريعية العليا في عهد الثورة الفرنسية أواخر القرن الثامن عشر) ومن مقصلتها . فالمقصلة لم تكن تفعل غير التخويف ، غير تحطيم المقاومة الفعالة ، ولكن هذا لا يكفينا) .

يقول لينين : (أجل إن هذا لا يكفينا ، فنحن بحاجة ليس فقط لإخافة الرأسماليين 'بمعنى جعلهم يشعرون بكلية جبروت الدولة البروليتارية وينسون التفكير بمقاومتها مقاومة نشيطة ، إنما نحن بحاجة أيضاً إلى تحطيم مقاومتهم السلبية لها ، والتي

هي دون شك مقاومة أشد خطراً وضرراً ، نحن بحاجة ليس فقط إلى سحق كل مقاومة أياً كانت ، بل ويترتب علينا أن نرغمهم على العمل ضمن إطار الدولة التنظيمي الجديد) .

(إن الوسيلة اللازمة لهذا الغرض متوفرة لدينا ... هذه الوسيلة هي احتكار الحبوب وبطاقة تموين الخبز والسوق الإجباري العام إلى العمل) هكذا يقول لينين !

خطة الجرد

يقول المؤلف الروسي : وإذن فالخطة واضحة ، وهي تركيز على الغلال وكل المنتوجات الغذائية (الجرد) في يدهم ، ومن ثم توزيع هذه المنتوجات بشكل يجعل الإنسان المتضور جوعاً والمهات سغباً يقدم لقاء بطاقة تموين الخبز على العمل لخدمة السلطة السوفياتية . وعلى القيام عموماً بكل ما يؤمر به . إنها لوسيلة بسيطة وعبقرية ككل شيء لدي لينين . أما فارق ذلك عن المقال التالي الموسوم « المهام المباشرة أمام السلطة السوفياتية » فيتمثل في أن التركيز في الحالة الأولى ــ أي حين كان الاستيلاء على السلطة مجرد حلم ــ كان يجري على أن طريق التجويع (طريق الجرد والتوزيع) سوف يستخدم لإكراه الأغنياء على العمل بذريعة أن الضرورة تقتضي إخماد مقاومتهم ، أما في الحالة الثانية ، حين تم الاستيلاء على السلطة ، فقد تعالت نبرات مغايرة . يكتب لينين :

ــ (على السلطة أن تنتقل من السوق الإجباري إلى العمل المطبق بحق الأغنياء ، أو بالأصح أن تضع نصب أعينها في الوقت ذاته مهمة تطبيق المبادئ المتعلقة بهذا الشيء « أي السوق الإجباري إل العمل والإكراه على مزاولته ــ الكاتب ــ » بحق أغلبية العمال والفلاحين والكادحين ، (المجلد ٣٦ ، ص ١٤٤) .

يقول الكاتب والروائي الروسي فلاديمير صلؤوخين : اقرءوا ما يقوله لينين :

(أما بشأن العقوبات جراء رفض الطاعة في العمل فيجب أن تكون أكثر صرامة ، إن الضرورة تقتضي أن يبلغ القصاص حد عقوبة السجن ، وبالإمكان أيضاً إنزال عقوبة الفصل من المصنع ، بيد أن طابع هذا الفصل يتغير تغيراً تاماً ، ففي ظل

النظام الرأسمالي كان الفصل يعتبر خرقاً للعقد المدني . أما الآن ، فعند انتهاك الطاعة ولا سيما في ظل تطبيق السوق الإجباري إلى العمل ، ترتكب جريمة جنائية يجب أن يحاسب عليها بعقوبة مناسبة) . ثم يعقب الكاتب فيقول :

هكذا بالحرف الواحد ، حيث ما كان ممكناً في عهد القيصر مجرد الفصل من العمل « كم أثير من صراخ وكم نظم من اضرابات بهذا الشأن » لم يعد الفصل وحده الآن كافياً . الآن هناك السجن . وهو ما كنا نرى فيه تنفيذاً لوصايا لينين ، ولا سيما في السنوات السابقة للحرب ، حيث كان التأخر لعشرين دقيقة عن العمل يؤدي بالناس إلى معسكرات الاعتقال ليلقوا حتفهم فيها .

ولكن من المفترض أن البلد يحيا في ظل دكستاتورية البروليتاريا فكيف يمكن الجمع بين دكتاتوريتها من جهة ، وبين ممارسة الدكتاتورية بحقها من جهة أخرى ، علماً بأنها دكتاتورية لا تمارسها طبقة ، بل حتى ولا حزب بل إرادة واحدة . أما عن حقيقة أن الحديث قد دار عن الرضوخ لدكتاتور واحد وإرادة واحدة ، فنحن نقرأ ذلك في كلمات لينين التي تخلو من المواربة :

(إن هذا الإخضاع قد يذكر ـــ في حالة تحلي المشاركين في العمل المشترك بقدر مثالي من الوعي والطاعة « أي في حالة الإذعان التام ـــ الكاتب ـــ » أكثر مما يذكر بلين القادة التي يمارسها قائد الأوركسترا « الذي يتمتع بحق زج أفرادها في السجن ـــ الكاتب ـــ) وقد يتخذ هذا الإخضاع أشكال الممارسة الدكتاتورية في حالة غياب الوعي والطاعة المثاليين ، ومهما يكن من أمر ، فإن الرضوخ المطلق لإرادة القائد السوفياتي ، الدكتاتور في أثناء العمل) .

ياللروعة !! احتشدت الجماهير وصخبت قليلاً وعبرت عن هيمنتها البروليتارية ، ورفعت عما في صدورها ، ثم يقرع الدكتاتور سوطه : ليعد الآن كل إلى مكانه !

يكتب لينين :

(علينا أن نتعلم كيف نؤالف نزوع الجماهير الديمقراطي المتجلي في الاجتماعات الحاشدة العاصفة ، الفياضة كفيضان الربيع الطافح من كل الضفاف ، مع الطاعة

الحديدية في أثناء العمل ، مع الرضوخ المطلق لإرادة فرد واحد هو القائد السوفياتي) .

الإجبارية

إنه ليصعب على المرء أن يجد تعبيراً أكثر دقة عن الطبقة المهيمنة التي يدعي أنها تمارس دكتاتوريتها في البلد . وعلى العموم فإن كلمة « الإجبارية » تكاد تكون المفردة الأثيرة لدى الزعيم في تلك الفترة والقرآن أصدق تعبيراً بأن سماه الطاغوت.

ــ (الخضوع أثناء العمل ، الخضوع المطلق للأوامر الشخصية الصادرة عن القادة السوفياتيين ، عن هؤلاء الدكتاتوريين المنتخبين أو المعينين المخولين صلاحيات دكتاتورية ...) .

أو ..

ــ (تدابير الانتقال إلى الحسابات الإجبارية الجارية أو إيداع النقود الإجباري في المصارف ...) .

ــ (تطبيق الشكل الأشد صرامة من الجرد اليومي والرقابة على إنتاج وتوزيع المنتوجات ..) .

ــ (إن تأخرنا في اعتماد السوق الإجباري إلى العمل يكشف لنا مرة أخرى ...) .

ــ (اتحاد السكان الإجباري في جمعيات استهلاكية ...) .

ــ (إن من شأننا أن نوحد السكان « بشكل إجباري عما قرأنا تواً ــ الكاتب ــ » عن طريق أقسام شؤون المواد الغذائية في السوفيتتات وعن طريق هيئات التموين في تعاونية موحدة تقودها البروليتارية) .

الإكراه ورأسمالية الدولة

يكتب لينين :

(لو تسنى لنا في روسيا خلال فترة قصيرة من الوقت تطبيق رأسمالية الدولة ،

لكان هذا انتصاراً) .

وأيضاً :

(ما هي رأسمالية الدولة في ظل السلطة السوفياتية ؟ إن تطبيق رأسمالية الدولة في الوقت الراهن يعني تطبيق الجرد والرقابة اللذين كانت الطبقات الرأسمالية تطبقهما في واقع الحياة) .

ـ (إن رأسمالية الدولة بالنسبة لنا هي باب النجاة .. إن من شأن رأسمالية الدولة أن تكون باب النجاة بالنسبة لنا . عندئذ سيكون الانتقال إلى الاشتراكية التامة يسيراً ، سيكون في قبضتنا ، ذلك أن رأسمالية الدولة أمر مركزي ، محسوب ، اجتماعي وخاضع للتحكم ، وهذا بالضبط ما يعوزنا ، لأن لدينا في روسيا حشداً غفيراً من البرجوازية الصغيرة التي تؤيد القضاء على البرجوازية الكبيرة في البلدان كافة لكنها لا تؤيد الجرد والتأميم والمراقبة) .

أو :

ـ (إن رأسمالية الدولة الاحتكارية هي الإعداد المادي الأوفى للاشتراكية ، إنها عتبتها ، إنها تلك الدرجة من سلم التاريخ التي لا يوجد بينها « أي بين هذه الدرجة » وبين الدرجة المسماة بالاشتراكية أيما درجات فاصلة) .

يقول أيضاً الكاتب الروسي :

فتأمل ! عند مثل هذا الطرح للمسألة لا غرابة بتاتاً في أننا مهما تصفحنا لينين ومهما أمعنا في مراجعته ، فلن يتسنى لنا في أي موضع أن نجد رداً على سؤال : ترى ما هي الاشتراكية التي كانوا يعتزمون بناءها إذن ؟ « الإشتراكية هي الجرد » ، « من لا يعمل لا يأكل » ، « من كل حسب قدرته ولكل حسب عمله » ؟ ، إن كل هذه التعاريف تعتبر محض عبارات جوفاء . فإذا لم تكن بين رأسمالية الدولة والاشتراكية أيما درجة فاصلة ، فما هو يا ترى وجه الاختلاف بين الاشتراكية ورأسمالية الدولة ؟ إننا لا نجد لدى لينين ردوداً صريحة على هذا السؤال .

التبعية المادية

أما في قرارة أنفسهم فقد كانوا يدركون القضية بوضوح وبساطة . ألا وهي تطبيق الجرد العام وفرض الرقابة على كل غرام وكل قطعة مما ينتج في البلد ومن ثم توزيعه حسبما يشاؤون . وبفضل هذه الرقابة وهذا التوزيع يتسنى فرض الرضوخ والسوق الإجباري إلى العمل على كل المواطنين دون استثناء ، أي سكان البلد عن بكرة أبيهم ، كما يخضعون للإرادة الواحدة خضوع رجل واحد . وهذه ، في رأيهم ، هي الاشتراكية ، أي الشكل الأسمى والأوسع جماهيرية من أشكال العبودية .

بيد أن فرض التبعية المادية ، أي من حيث القوت والممتلكات على الملايين من المواطنين يستوجب أولاً تجريدهم من تلك الاحتياطات التي ربما ادخروها كي تتيح لهم فرصة الشعور بالاستقلال عن الجرايات وبطاقات تموين الخبز وأجور العمل . لهذا ما إن استولى البلاشفة على السلطة حتى شرعوا منذ خطواتهم الأولى في الاستحواذ على كل روبل وكل كوبيك وكل غرام من الخبز .

لقد تسنى لهم بيسر القضاء على البرجوازية الكبيرة وأصحاب المصانع والمصارف وعدد هؤلاء كان قليلاً بالأصل . وبالإمكان إحصاؤهم وضبط جرد بهم ونهب ممتلكاتهم . ولكن ما العمل مع صغار المالكين ؟ هؤلاء يعدون بعشرات الملايين لذا كان صغار المالكين يثيرون لدى لينين كراهية جمة تفوق ما يثيره كبار الرأسماليين ، وهو يكتب ويجاهر بذلك صراحة . إذ أن صغار المالكين هم كل سكان روسيا المزاولين للمبادرة الذاتية أو النشاط الذاتي الذي يعني الاستقلالية . وكان المطلوب بالضبط هو تجريدهم من هذه الاستقلالية وإخضاعهم وتحويلهم إلى آلية تكون طوع بنان الإرادة الواحدة .

ــ (إنهم لا يرون الفوضى البرجوازية الصغيرة الطليقة اليد بصفتها العدو الرئيسي للاشتراكية عندنا) .

يقول لينين :

إذن العدو الرئيسي للاشتراكية هو الناس المستقلون المزاولون للنشاط الذاتي ، فمن

هم هؤلاء الناس يا ترى ؟! إن جواب لينين لا مواربة فيه :

ــ (الأغلبية والأغلبية العظمى من المزارعين أي صغار المنتجين البضاعيين » .

ــ (إن لدى البرجوازيين الصغار احتياطياً من النقود يقدر ببضعة آلاف ادخروه بشتى الطرائق « الشرعية » وبالأخص غير الشرعية) .

الشرعي اللاشرعي

إن النقود في جيوب الآخرين تقض المضاجع . أما عن الطرائق « غير الشرعية » فقد أقحمت هذه العبارة بالطبع ، لأجل بديع الكلام . فبأية طرائق غير شرعية استطاعت إدخار النقود « الأغلبية العظمى من المزارعين » ؟ ولم يكن بوسعه أن يقول « المزارعين كافة » . في حين كان يقصدهم جميعاً ، وإلا ماذا يمكن أن تعني عبارة « الأغلبية العظمى » .. كان بالإمكان أن يعزي إلى مدخري النقود أيضاً شتى ضروب صناع اللباد وعاملات التطريز والدانتيلا والروافين والسراجين وعمال الجلود والدباغين والإسكافيين والشماعين والنجارين والصفارين والطراقين والحوذيين ورسامي الأيقونات والزجاجين والفحامين الخ .. وباختصار كل سكان روسيا المزاولين للنشاط الحر . وكل هؤلاء جرى جمعهم في نفس عام عام هو الفوضى البرجوازية الصغيرة الطليقة اليد . إنه لنعت ذو صبغة خاصة . فما إن تقول « مزارع » حتى تتغير الصبغة .

ــ (إن النقود ستعد للحصول على الثروة الاجتماعية ، والشريحة التي تضم الملايين « ! » من صغار المالكين تشبث تشبثاً قوياً بهذا السند وتخفيه عن الدولة دون إيمان منها بالاشتراكية والشيوعية) .

ــ (إن البرجوازي الصغير الذي ادخر الآلاف عدو لرأسمالية الدولة ، وهو يرى الانتفاع من هذه الآلاف لأجل نفسه دون سواه) .

ألا ترون كم هم أوباش ، يا لهم من قوم ، ويا له من جهل مطبق ووعي مندثر ! عوضاً عن تقديم دراهمهم إلى الدولة ، تراهم يخبئونها ويهمون بإنفاقها على أنفسهم . لن تمر ألاعيبكم ، أيها السادة ، يا صغار المالكين ! سوف نصادرها . تارة بالقوة ،

وتارة لحرمانكم من البضائع وإبقائكم تقتاتون بالخبز اليابس . عن طريق جمعيات التموين التجارية ، إن لم نفعل ذلك بالمعول ، فسنفعله بالمجرفة ، لكن سنصادرها في آخر الأمر !

الدكتاتورية الغذائية

هنا بالذات برزت أمام البلاشفة المهمة الرئيسية مهمة المهمات ، وهي تركيز كل الحبوب في قبضتهم . إنها الوسيلة الرئيسية للتأثير والقمع والتشجيع ، وببسيط العبارة إنها وسيلة السلطة . فابتدأت إحدى أفظع صفحات التاريخ الروسي وأكثرها إراقة للدماء بعنوان ــ الدكتاتورية الغذائية .

كان لينين يعرف في قرارة نفسه حق المعرفة أنه يطبق احتكار الحبوب . أي يركز في قبضته كل الغلال المتوافرة في روسيا . لكنه قدم إلى الرأي العام بعبعاً ، كلمة صغيرة يبدو من المستحيل الاعتراض عليها ، كلمة مقتضبة هي المجاعة !

لقد جرى ترتيب الأمور بحيث أصبحت المدينتان الرئيسيتان بتروغراد وموسكو تعيشان على جرايات المجاعة . مائة غرام من الخبز ففي اليوم الواحد . « للفرد الواحد ــ المترجم » . طوابير مخيفة للحصول على المائة غرام هذه . وما دامت هناك مجاعة ، فلا بد من شن حملة لاستحصال القمح ، شن صراع على القمح ، انتزاع القمح من أجل الجياع . إنها لقضية نبيلة ونقية نقاء الدموع .

غير أن المجاعة في موسكو وبتروغراد كانت مفتعلة . ففي تلك الأثناء بالذات كانت لاريسا رايستر « ١٨٩٥ــ١٩٢٦ » كاتبة شيوعية يهودية كانت من المسؤولين في الجيش الأحمر تشغل قصراً منيفاً يحيط بها الخدم وتستحم بالشامبانيا ، وتقيم حفلات باذخة . كيف يمكن أن تجوع مدينتان إذا لم تكونا محاصرتين بأعداء ، وحين كان باقي أرجاء البلاد مليئاً بالغلال . لو كان هناك ترخيص لظهرت في جميع الأسواق الأخرى . لقد ذكر لينين نفسه مراراً خلال تلك السنوات أن ليس ثمة مجاعة في واقع الحال . يقول :

ــ (الآن تلوح بوادر مجاعة . لكننا نعلم أن لدينا من القمح ما يكفي تماماً

حتى بدون سيبيريا والقفقاس وأكرانيا . هناك كميات من القمح تكفي حتى موسم المحصول القادم ، وهي متوافرة في المحافظات المحيطة بالعاصمة ، لكنه مخبأ بأسره لدى الكولاك « أغنياء الفلاحين ــ المترجم » .

كتب لينين :

ــ (على مقربة من موسكو ، في المحافظات المجاورة في كورسك وأورلوف وتومبوف ، لدينا حتى الآن حسب تقديرات الخبراء المتحفظة ما يصل إلى عشر ملايين بود من القمح الفائض « البود يعادل ١٦,٣٨ كلغ » .

كان البلاشفة في تلك الأثناء يخشون بشدة أن يتسرب القمح عفوياً ، أو حتى أن ينهال على العاصمتين الجائعتين فيحبط ما بيتوه ، ولأجل هذا الغرض جرى على السكك الحديدية نشكيل مغارز حجز مهمتها السهر على أن لا يتسرب كيس واحد من القمح إلى موسكو أو بتروغراد .

وبعد إرغام عمال هاتين المدينتين وباقي سكانهما على التضور جوعاً ، أعلن لينين حملة على القمح الذي كانت الحاجة إليه لا تتمثل فعلياً في إطعام المدينتين ، بل في تطبيق احتكار الحبوب ، يقول :

ــ (نحن بحاجة إلى حملة عسكرية «!» والحرب «!» بلا هوادة ضد البرجوازية الفلاحية وغيرها «!» التي تحتفظ بفائض القمح) .

ــ (التحقق بدقة من مالكي القمح الذين يحوزون فائضاً من القمح ولا ينقلونه إلى المحطات وأماكن التجميع الكيل بغية اعتبارهم أعداء للشعب ليعاقبوا بالسجن مدة لا تقل عن عشر سنوات مع مصادرة كل ممتلكاتهم وطردهم إلى الأبد من جمعياتهم) .

ــ (تحويل القوميسارية الحربية « وزارة الحربية ــ المترجم » إلى قوميسارية الغذاء الحربية) .

ــ (استنفار الجيش بفرز قطعاته الجيدة وتجنيد من بلغ سن التاسعة عشرة لأجل القيام بعمليات عسكرية منتظمة «!» للاستيلاء على القمح وجمعه ونقله) .

ــ (إنزال عقوبة الإعدام رمياً بالرصاص بمن يرفض الطاعة . ويقاس نجاح المفارز بنجاحات العمل المتعلق باستحصال القمح) .

ــ (إن مهمة مكافحة المجاعة هي ليس فقط ابتزاز «!» القمح من الاهراء ، بل أيضاً كيل وجمع كل فائض الحبوب حتى النهاية في احتياطات الدولة ، كذلك الحال مع سائر المواد الغذائية عموماً . ومن دون ذلك يستحيل تماماً تطبيق أي تحويلات اشتراكية) .

هذا هو إذن دافع الحاجة إلى القمح الروسي ، وليس لأجل القضاء على المجاعة في موسكو وبتروغراد. ويهيأ لي أنه فضلاً عن المهمة الرئيسية ــ أي تركيز كل المنتوجات في قبضة واحدة لأجل مزاولة الحكم والسلطة كان للدكتاتورية الغذائية هدف مرافق آخر. وهذا نتجت عنه المجاعة وهذه لا يأبه بها الطاغوت.

متى يبصر الشيوعيون العرب ؟

إن كل ما نشر عن تناقض الشيوعية ودعاتها لا يراه الشيوعيون العرب لو نشرته وكالات الأنباء السوفياتية والصينية ، ولا يقنعهم أن المجر أعلن برلمانها إلغاء الشيوعية في المجر بما فيها اسم الدولة فأصبحت جمهورية المجر ، ودول أوروبا الشرقية قد استغنت عن قيادة الحزب الشيوعي وعزلته عن ما في روسيا فقد صدر قانون بإباحة تملك المصانع للأفراد ، و لكن الشيوعيين العرب لا يبصرون شيئاً .

إنه في مقالي المنشور بجريدة السياسة يوم ١٩٧٣/١٠/٥ والمجتمع يوم ١٣ شعبان ١٣٩١ (١٩٧٣/١٠/٩) بعنوان ماركسية نجيب محفوظ ، طالبت الماركسيين العرب أن يكفوا عن تزييف الحقائق والافتراء على الله فالشيوعية في إنهيار وكذا الرأسمالية والإسلام هو مؤسس السلام بين النظم الإقتصادية المتصارعة وروسيا يتعين بها منذ الستينات أن تعود إلى الملكية الفردية لحل مشكلاتها الاقتصادية .

الفهـرس

الفصل الأول
محاضرة المستشار سالم البهنساوي

الفصل الثاني
محاضرة الدكتور فؤاد زكريا

الفصل الثالث
التعقيبات والإجابات

الفصل الرابع
دور العقل والمنهج العلمي

الفصل الخامس
الحرية ومعاول الهدم العلماني

الفصل السادس
الإسلام والمشكلة الاقتصادية